تـــم

بـــحـمـد

اللّه

مقدمة

تعد شخصية أبي العلاء المعري من أكثر الشخصيات الأدبية إثارة للجدل ،سواء بين القدماء أو عند المحدثين ،وربما يرجع السبب في ذلك إلى تميز هذه الشخصية في جانبيها الفكري والفلسفي ،وكذا في الجانب الأدبي والنقدي ،مما أكسب الكتابة حول هذه الشخصية أهمية متميزة، لكونها تبتغي الإمساك بعالم شاعر عبقري منفرد في الاتجاه الفني ، والذي تبناه طوال مسيرته الشعرية ، فعالم المعري الأدبي له خصوصياته على المستوى الفني ،و كذا على مستوى الموقف الاجتماعي و الإنساني،ولذ احظي إنتاجه الأدبي –كما ذكر بعض من قرأت له –بأكثر من مئة وخمسون بين دراسة .بحث وإشارة ،واستغرق جهود عدد كبير من الباحثين ، وعلى رأسهم في العصر الحديث الدكتور "طه حسين" والناقد " عباس محمود العقاد" وغيرهم كثير ،ولا يمكن لأي إنتاج أدبي استقطاب ذاك الكم الكبير من الدراسات لو لم يكن من النصوص الخالدة.

ولا يمكن لأي شخصية أدبيّة أن تستقطب اهتمام كبار الدارسين أمثال " طه حسين " و"العقاد" للكتابة حولها ،لو لم تكن لها مميزاتها الخاصة ،وهذا ما دفعني لتناول هذه الشخصية الأدبية الهامة وذلك من خلال قراءت نقدية لثلاث من أهم الدراسات التي كتبت حول هذا الحكيم ،واستخلاص أهم الآراء النقديّة الحديثة التي توصّل إليها المحدثون من النقّاد .غير أن الإشكال الذي يفرض علينا أن نترك له مكانا في هذه المقدمة هو : **ما هي أهم الأدوات النقدية الحديثة التي بحث من خلالها هؤلاء النقاد عن مميزات الشخصيّة العلا ئيّة ؟ وما هي أهم النتائج التي توصلوا إليها ؟.**

وللإجابة على هذه الإشكاليّات ،حاولت وضع خطّة بحث قسمت فيها الدراسة إلى : مقدمة وفصلين وخاتمة . حيث تناولت في الفصل الأول ثلاثة مباحث ،فجعلت المبحث الأول خاص بأثر البيئة السياسية والثقافية في شخصية أبقي العلاء ، ووضعت في المبحث الثاني أهم المكونات النفسية والفكرية لشخصية أبي العلاء ، وتركت المبحث الثالث لأهم ما يميز الكتابة الأدبية عند المعري .

و أما في الفصل الثاني فوضعت ثلاث قراءات نقدية لثلاث من أهم الكتب النقدية التي تناولت بالدرس شخصية وأدب أبي العلاء ،وبدأت في المبحث الأول بكتاب "تجديد ذكرى أبي العلاء " للدكتورّ طه حسين"،إذ يعد من أوائل الكتب النقدية التي أخذت بالمنهج التاريخي في النقد

بمفهومه الحديث :وخصصنا المبحث الثاني لكتاب "مبصر بين عميان"للأستاذ "خليل شرف الدين":وحصرنا البحث فيها عن أهم القضايا المتعلقة بالأدب والنقد:قبل إن نتقل في المبحث الثالث والذي هو عبارة عن قراءة ندية في كتاب" رجعة أبي العلاء "للعقاد :ثم جعلنا في آخر الدراسة خاتمة بينّا فيها أهم النتائج المتوصل إليها في هذه الدراسة

هذا وقد اعتمدنا في بحثنا هذا على المنهج الوصفي كالذي يعد الأنسب لمثل هذه الدراسات

وأما عن أهم المصادر ومراجع هذه الدراسة فهي

- تجديد ذكرى أبي العلاء لطه حسين
- مبصر بين عميان لخليل شرف الدين
- رجعة أبي العلاء للعقاد

وفي النهاية لا يسعني إلا أن أشكر أستاذي الفاضل "حجاب عبد اللطيف" الذي وجهني وأعانني على إنجاز هذا البحث المتواضع كوان أشكر عمال المكتبة المركزية وكذا صاحب مكتبة التوحيد الذين كانوا يد عون لي طوال مدة البحث بإمداد بما احتاج إليه من كتب وغيرها من المساعدات وأخير نقول :فإن أصبنا فمن الله وإن أخطأنا فمن أنفسنا ومن الشيطان.

الخاتمة

ينطلق البحث العلمي من مجموعة من الأسئلة و الإشكالات ثم يمر في محاولة للإجابة عن تلك التساؤلات في مجموعة من المباحث إلى أن يصل إلى مجموعة من النتائج ،والتي عادة ما يضعها الباحث في نهاية الدراسة ،وأهم ما توصلت إليه في هذا البحث هي مجموعة من النقاط:

– أن أبا العلاء المعري هو كغيره من الشخصيات الأدبية تأثر بالبيئة و الثقافة التي عاش فيها ، فمثل لسان حال عصره .

– أن أبا العلاء وان كان قد تأثر بالزمن الذي قضى فيه حياته كان كغيره من العباقرة الذين يشذون ويتميزون عن زمانهم بآرائهم وأساليبهم ،وفلسفتهم في الحياة نظرتهم إلى المجتمع.

– كما توصلت أن كتاب "تجديد ذكرى أبي العلاء " يعد أول دراسة نقدية عربية ممنهجة أخذت بالمنهج التاريخي بمفهومه الحديث في دراسة شخصية أبي العلاء .

– كما عرفنا أن طه حسين قد وفق وإلى حد بعيد في تطبيق المنهج التاريخي في درسه لشخصية أبي العلاء

– وعند الأستاذ خليل شرف الدين عرفنا أنم الشاعرية الحقة ليست قوالب إيقاعية يسكب فيها الكلام ، وإنما هي قيم تعبيرية و ظلال نفسية محيطة بها أساسها تجربة شخصية ذات أبعاد إنسانية ، وأن الشعر عند أبي العلاء هو حكمة وفلسفة .

ووصل الأستاذ خليل شرف الدين إلى أن الشعر عند أبي العلاء خرج من دائرته القديمة الضيقة،دائرة القبلية و الارتزاق إلى دائرة الكون و الإنسان

– وتمثلت الحداثة عند أبي العلاء في المواقف الرافضة لكل الأعراف والعلائق البشرية مع تميز شعره بالصدق والعفوية التي هي أساس الحداثة .

– وفي الأخير أرجو أني قد وفقت في هذه الدراسة و قد أصبت فيها شيء من الفوائد و لربما أكون قد عبدت الطريق لغيري لتناول هذا الموضوع بالدراسة والتحليل .

ملخص :

تناولنا في هذه المذكرة حضور شخصية أبي العلاء المعري في النقد الأدبي الحديث من خلال ثلاث كتب هم : " تجديد ذكرى أبي العلاء " لدكتور طه حسين ، و " مبصر بين عميان " للأستاذ خليل شرف الدين ، و " رجعة أبي العلاء " لعباس محمود العقاد وتجد في الفصل الأول من هذه المذكرة أثر البيئة السياسية والثقافية في شخصية أبي العلاء كما سلطنا الضوء على أهم مميزات الشخصية العلائية من خلال مكوناتها النفسية والفكرية ومن خلال تميز إنتاجه الأدبي.

قيل أن تنتقل في الفصل الثاني إلى التركيز على أهم القضايا النقدية في كتاب " تجديد ذكرى أبي العلاء " و التي يمكن تلخيصها في ثلاث نقاط : المنهج التاريخي في جانبه الإجرائي في " تجديد ذكرى أبي العلاء " و الاتحاد الوجداني بين الناقد و الأديب و الفصل بين الانهيار السياسي و الرقي الثقافي .

و أما عن كتاب " مبصر بين عميان " فكان البحث حول تلخيص أهم المباحث النقدية التي تلخص شعر و أدب أبي العلاء و ذلك من خلال : البحث عن الحداثة في شعر أبي العلاء و تميز شاعرية آبي العلاء و الأسلوب الأدبي العلائي.

و في المبحث الثالث من الفصل الثاني وضعنا ملخصا لكتاب " رجعه أبي العلاء " و الذي هو عبارة عن رجلة خيالية و سياحية وفكرية للعقاد مع أبي علاء على طريقة رسالة الغفران و الذي حاول من خلالها الكاتب استنطاق أهم الآراء و الأفكار الفلسفية لأبي العلاء المعري .

Résumé

Nous avons traité dans cet mémoire ,la présence de la personnalité de Abou Alaa El Maari , dans la nouvelle critique littéraire d'après trois livres sont : « 'actualisation de la souvenir de Abi alla » du docteur Tahaa Hussein et « Mobsir Bine Omiane » de professeur Charef Eddine et « le retour de Abou Alaa » de Abbas Mahmoud El Akkad ,tu trouve dans le premier chapitre de cette mémoire ,l'impact de l'environnement politique et culturel sur la personnalité de Abou Alaa, comme nous mettons en lumière les principes caractéristique de la personnalité oubliant .d'après sa composantes psychologiques et intellectuelles ainsi de sa production littéraire .

Avant d'aller au deuxième chapitre ,la concentration sur les questions importantes de la critique dans le livre « la rénovation de Abou Alaa » ,et qu'on peut le résumé en trois points :

- Approche historique de sa procédure dans «rénovation du souvenir de Abou Alaa».

-Union affective entre critique et écrivain

-La séparation entre l'écroulement politique et le raffinement culturelle.

Ce qui concerne le livre « Mobsir Bine Omiaa » la recherche était basée sur le résumé les importants recherches critique qui caractérise la poésie et la littérature de Abou Alaa ,a travers :

-Recherche de la modernité dans la poésie de Abou Alaa

-Caractéristique du poésie de Abou Alaa

-Le style littéraire de Abou Alaa .

dans le troisième partie du second chapitre nous mettions un résumé pour le livre « le retour de Abou Alaa » qu'il s'agit d'un voyage fantaisiste et tourisme intellectuelle du Akkad avec Abou Alaa sous la forme de Rissalet El ghoufrane ,dont la quelle d'après l'auteur l'interrogation des principes opinions et les idées philosophiques de Abou Alaa El Maari .

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة المسيلة

كلية الآداب واللغات

قسم : اللغة والأدب العربي

شخصية أبي العلاء المعري في النقد الأدبي الحديث

- تحليل ومقارنة -

مذكرة شهادة الماستر

- فرع : أدب عربي تخصص: نقد أدبي حديث

إعداد الطالب :
كبوية السعيد

أمام لجنة المناقشة المكونة من :

- د البشير زغبة	أستاذ محاضر(أ)	جامعة المسيلة	رئيسا.
- د عبد اللطيف حجاب	أستاذ محاضر (أ)	جامعة المسيلة	مشرفا.
- د ناصر عبد العزيز	أستاذ محاضر (أ)	جامعة المسيلة	ممتحنا.

السنة الجامعية : 2012 / 2013

إهداء

إلى كل من أحب ...

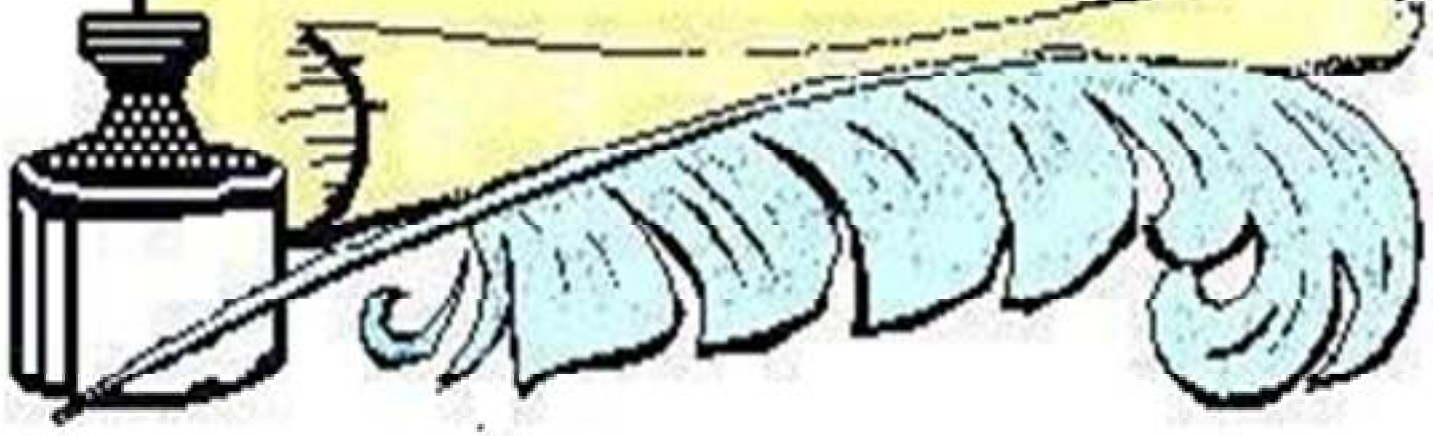

الفصل الأول :أبو العلاء البيئة والشخصية

فترة أبي العلاء: (البيئة و الثّقافة)

مكونات الشخصية :(الانفرادية/التّميز)

إنتاجه الأدبي: (الإبداع / الانزياح)

فترة أبي العلاء (البيئة و الثقافة)

1-البيئة

عاش الشّاعر الفيلسوف أبو علاء المعرّي مابين سنتي (336- 449 م) ، في فترة الانهيار الّسياسي من العصر العبّاسي ، في زمن تصدّعت فيه السّيادة العربية نتيجة تكالب الحكام على السّلطة ، وتصارع المذاهب و القوى من أجل السّيادة ، عاش شاعر الفلاسفة في ...((نهاية هذه الفترات و البلاد العربية تعصف بها الزّعازع ، وتهزّها الأعاصير ، فكان الحكم في بغداد غيره في مصر ، وفي بلاد الشّام غيره في القطرين المتباينين ، وهو في أقصى المغرب،غيره في الأندلس ، وفي شمال إفريقية غيره في الأقطار العربية الثلاثة .

كل شيء قد تعرض للميوعة و الّتفكك ، ففسدت الحياة السّياسية ، وفسدت الحياة الاجتماعية حتى أصبحت الدّنيا العربية وكأنها على بركان ... دُولٌ مُخَتلفاتُ المنازِعِ و الأهداف ،قد انتشرت في الرقعة الإسلامية الكبرى نزعات فردية في إهاب من المطامع الصّارخة تجيش في كل صدر ، جمعيات سرّية تستهدف غايات مريبة ، مذاهبٌ جديدة هدّامة ترمي إلى نزاعات سياسية خطيرة . كل شيء قد فسد و اضطرب ، وأبو العلاء ينظر إلى هذه التّيارات الجارفة نظرة الفيلسوف الإنساني المتألم و قد أشفق – وهو الحكيم البعيد الّنظر – أن تنهار هذه الإمبراطورية الكبرى في الفترة التي وصلت فيها الحياة العقلية إلى الذّروة ،و أن يكون لبيئته النّصيب الأوفر من مأساة هذا الانهيار))[1] .

استيقظ أبو العلاء في بيئة سياسية كان ((إذا مات فيها الأمير ، مؤسس الدولة الإقليمية، وخلفته ذرّية ضعاف ،ضاع التّدبير وانهار الملك بعد اعوام قد تعد بالعشرات ... كل قائد يبلغ مبلغ القوة ، يستطيع أن يخرج على الأمير إذا اشترى تأييد الخليفة ،و كل مظهر من مظاهر

1 -مجموعة من الباحثين ، المهرجان الألفي لأبي العلاء المعرّي ، دار الصادر ، بيروت ،ب ط، ب ت، مقال لسامي الكيلالي،ص179

الضّعف في ولّاة الأقاليم ، يعالجه الطامحون من جندهم و مواليهم ، أو جيرانهم ومنافسيهم ، بضربة يباركها خليفة المسلمين .

وكل عرش يموت أميره تتطاول اليه أعناق ذوي القوة ، ولا على القوي أن يطأ الرّؤوس و يخوض في الدّم ، مادام في حسابه أن تؤيّده بغدد بصكّ شرعي .))[1]

((كانت بغداد عاصمة الحكومات الإسلامية في عصر أبي العلاء ، وكانت خاضعة لقبيلة ديلم أو للأسرة البويهية التي حكمت العراق و فارس ، وكان قيامهم ببغداد و استئثارهم بأمر الخلفاء قد جعل دولتهم أبعد الدول الأسيوية في هذا العصر صوتاً و أطيرها ذكراً.)) [2]

و أما الشام – وهي البيئة الاصلية لابي العلاء – فكانت((مسرحا لفتن و حروب متعاقبة لعلّ أقربها الى عهده تلك الحروب و الغزوات التي أثارها الأمير سيف الدولة توطيدا للكيان العربي و صونا لثغور الشام من الغزو البيزنطي و إذ كانت الأيام لم تسعد المعري أن يرى المجد الشامخ الذي شاده الأمير الحمداني في السّياسة القومية ، و الحياة العقلية ، فقد شاهد – وهذا ما زاد في محنته – لوناً من ضعف السّياسة ، و فساد الرأي في ابنه سعد الدّولة ، وفي حفيده أبي الفضائل، و إذا تركنا الكلام عن ابن سيف الدّولة لأن ملكه لم يطل ولم يتميز بالأحداث الخطيرة، فنرجو أن يطول حديثنا قليلا عن حفيده أبي الفضائل ، فقد انتهى حكم الّدولة الحمدانية ، و الدّنيا العربية على ما وصفنا ، ولم يكن أبو الفضائل كجدّه بل كانت مطامحه منحصرة بالملك دون أن يعطي للمملكة حقها من التّضحية و البذل ، اي كان يريد أن يحتفظ بصولجان الملك رخيصاً ، وكانت أهدافه تختلف كل الاختلاف عن أهداف جّده ، هذا يفكر بمجد أمّته و بلاده ، وذاك بمجده الشّخصي ، و الفرق جدّ بعيد بين الاتّجاهين ... و اذا كانت بلاد الشام تتمتع بالحكم

1 -عائشة عبد الرحمان، مع أبي العلاء المعري في رحلة حياته ، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان ، الطبعة الاولى ، 1972م ، ص107.

[2] -طه حسين ، تجديد ذكرى أبي العلاء ، دار المعارف ، مصر ، ط 6 ، 1963م ، ص46.

الذّاتي على أيدي أمراء مختلفي المنازع و الأهواء ، فقد فكّر الفاطميون بضمّها إلى مصر لاسيما بعد أن تضاءل سلطان بغداد الرّوحي كما تضاءل سلطانها السّياسي .))[1]

((وقد عزّز هذه الفكّرة الرّغبات التي أثارها بعض زعماء حلب النّاقمين على حكم أبي الفضائل من جهة ، و اغراء الوزير المغربي للخليفة الفاطمي بوجوب الاستيلاء على حلب و أطرافها من جهة أخرى ، ونزلت هذه الرغبات من نفس عزيز مصر منزلة طيّبة فجهّز حملة كبرى إلى بلاد الشّام لضمّها إلى المملكة الفاطمية و ناط أمر هذه الحملة بأحد غلمانه الاتراك الذي استطاع أن يُخضع البلاد الشّامية كلها دون حلب التي امتنعت على مصر.))[2]

ونجد كتب التّاريخ تقصّ لنا أحداثا وحروبًا دامت لمدّة أربع سنوات كاملة بين البيزنطيين و الفاطميين ، كان يكتب فيها النصر للفاطميين مرّة و البيزنطيين مرّة أخرى .

و ((الأديب رجل تعاف نفسه شرور السّياسة ، و شرور الحروب و القتال ... وقد فكّر في بقعة تكون بمعزل عن هذه الشّرور ، فرأى بغداد أهدأ حالا من الشّام، وهي إلى هذا كعبة العلم و الأدب، فشدّ إليها الرّحال ومكث فيها سنة و بعض سنة ، فما الّذي أفاده من هذه المرحلة التي تركت في نفسه أجمل الذّكريات؟ لقد خرج بفكّرة لا غموض فيها ، وهي أن الإنسان بالرّغم ممّا ناله من كرم البغداديين ... هو هو في جبلّته وطبيعته، و أن الحكام هم هم في كلّ مصر ووطن، وانتهى إلى الرّأي الذي يتلاقى وروح فلسفته الحزينة التي تقوم على الشّك و اليأس :

إنّ العراق و إنّ الشام مذ زمن   صفران ما بهما للّملك سلطان

ساس الأنام شياطين مسلّطة   في كلّ مصر من الوالين شيطان [3]

وقد أدّى ذلك الصّراع السّياسي إلى أثار سلبية في المجتمع، ودفع إلى ((توزّع المجتمع إلى ثلاث طبقات أساسية : طبقة عليا تشتمل على الخلفاء و الوزراء و القواد و الولّاة و من يلحق بهم

1 - سامي الكيالي ، المهرجان الألفي لأبي العلاء المعرّي ، ص181 .
2- المرجع نفسه،ص181
3 -المرجع نفسه ،ص47.

من الأمراء و كبار رجال الدّولة و التّجار و أصحاب الإقطاع من الأعيان ... ، وطبقة وسطى تشتمل على رجال الجّيش و موظفي الدّواوين و التّجار ...، ثم طبقة دنيا تشتمل على العامة من الزّرّاع و أصحاب الحرف الصّغيرة و الخدم و الرّقيق .)) [1]

((في قلب هذه الصّراعات السّياسية و ذلك الفساد الاجتماعي عاش أبو العلاء، وممّا لاشكّ فيه أنّ تلك البيئة قد عملت عملا غير قليل في تكوين الفلسفة العلائية ، فلابد من فهمها ،إذا حاولنا أن نفهم أبا العلاء ، ونحن إذا فهمنا هذه الحياة السّياسية السّيئة ، وقرنّاها إلى غيرها من الأسباب التي اشتركت في تكوين هذا النّسيج الفلسفي الّذي تمثّله اللزوميات))[2]،نكون قد استطعنا حقا فهم أبا العلاء .

فأبو العلاء أديب حسّاس ، وشاعر عميق التّفكير ، وفيلسوف حرّ ذو نظرة نافذة ، رأى وطنه نهبا للأهواء و الشّهوات ، و رأى البلاد العربية و قد انتهت إلى ما انتهت إليه من الضّعف ، و الاضطراب و الفوضى ، بديهي أن يؤثّر ذلك في أدبه ، و أن تشيع روح السّخرية في هذا الأدب .

كان حكيم المعرة يفكر دائما في الهجرة إلى بقعة من الأرض العربية تخلو من فساد عصره و حاول التّخلص من تلك المآزق و لكن :

كيف التّخلص و البسيطة لجّة و الجو غيم بالنّوائب يسجم

فسد الزّمان فلا رشاد ناجم بين الانام ولا صلال منجم))[3]

((إلى أين يذهب وكل أرض قد ملئت بالمفاسد و الشّرور ؟ قبع في بيته في سجنه الضّيق ، و أخذ يرسل صيحاته الصّادقة في تصوير طباع البشر ... وليس كالمعرّي أديب شاعر عرف سجايا النّفس البشرية و طوياها فوصفها أبلغ وصف، كما وصف هذه الشّهوات التي كانت

1 - شوقي ضيف ، العصر العبّاسي الثّاني ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الثانية ، 1975،ص 53.
2 - طه حسين تجديد، ذكرى أبي العلاء ، ص 64 .
3 -سامي الكيلالي ، المهرجان الألفي لأبي العلاء ،ص184.

لا تعرف غير النّهب و الاستلاب، فكان رغم عزلته ذا اتصال مباشر بهذه القضايا الّتي تشغل الشّعب سواء من النّاحية السّياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الخلقية .))[1]

((ففي اللزوميات وفي رسائله تقرأ الكثير من هذه اللمزات التي تصف اضطراب السّياسة و سوء الإدارة و فساد الحكم و المجتمع و سوء تسيير الخزائن الاقتصادية . هذه السّياسة المضطربة الّتي غمرت بيئته و كلّ بقعة من الأرض العربية ،هي التي كانت تستثيره ليصف الأهواء الجامحة.

يسود النّاس زيد بعد عمرو　　　كذلك تقلب الدّولات دوله

ومن شرّ البرية ربّ ملك　　　يريد رعية أن يسجدوا له

ولعلّ تلك السّياسة المضطربة وذلك المجتمع المنهار هو الّذي دفع أبا العلاء أن ينظر إلى الدّنيا تلك النّظرة السّوداء و أن يراها على حقيقتها و أن يرى شرورها أغلب ... .

عرفت سجايا الدّهر أما شروره　　　فنقدٌ ، و أما خيره فوعود

إذا كانت الدّنيا كذاك فخلّها　　　ولو أنّ كلّ الطّالعات سعود

رقدنا ولم نملك رقاداً عن الأذى　　　وقامت بما خفنا ونحن قعود))[2]

نعم كان لتلك البيئة الأثر الكبير على أدب أبي العلاء كيف لا((ونحن نجد تلك الأحداث التي واجهت عصره ، هي التي جرّته إلى العزّلة ، تلك العزّلة التي انتجت للأدب الحي ثروة خالدة،ترمز إلى جبروت العقل العربي الذي لا يقل في خياله و إبداعه عن أسمى العقول التي عرفتها آداب البشرية .))[3]

[1] ـ المرجع السابق ،ص184.
[2] ـالمرجع نفسه ، ص186.
[3] ـالمرجع نفسه ، ص 188 .

((ذلك هو الأدب العلائي الذي يعتبر نسيج وحده بين آداب الأمم الحية ، و الذي يرى فيه الباحثون الكثير من الآراء و الفكرات و الصور التي تتلاقى مع أصدق ما خلّده أكابر أدباء العالم في مختلف العصور نعم إنّنا نجد مثلا في حدائق أبي العلاء العابسة الكئيبة تشاؤم شوبنهور.

ونجد فلسفته لم تقف عند واحات الزّهد و العزلة بل تعدّتها إلى الأخلاق و السّياسة و الاجتماع و الدّين و الإنسان و الخالق ، فأبدى رأيه صريحا في جميع ظواهر الحياة ما ظهر منها وما استتر))[1] .

2–الثقافة

إذا كان عصر أبي العلاء هو عصر الانهيار السّياسي ، فإنّه على العكس من ذلك في جانبه الثقافي فقد كان من أزهى عصور الحضارة العربية ثقافة،و ((بدأ العربي في وعي التفتح الجديد يتطلع الى العلوم تطلع المتشوق الى المعرفة ، الظمآن الى اكتناه حقائقها .))[2]

((ولا عجب أن تزدهر الثقافة في زمن أبي العلاء اذ لقيت من جهة قلوبا متعطشة إلى الرقي ، ومن جهة أخرى اندفاقا ثقافيا جارفاً.)) [3]

بالإضافة إلى ذلك التمازج العنصري الذي كان من الجيل الجديد ذو أخلاق وعادات جديدة، وكان منها تلقيح العقول و الأقلام و الأذواق ،دون أن ننسى حركة النقل و الترجمة التي امتدت على أوسع نطاق ،فكل هذه الأسباب تركت أثارا عميقة في اللغة و الأدب و العلم .

ويرى الكثير من الباحثين و على رأسهم " طه حسين " أنه لا سبيل الى القول بتلازم الانهيار الثقافي بالانهيار السياسي ، أي لا يمكن القول بأن الانهيار السياسي يؤدي إلى نتيجة حتمية ألا وهي الانحطاط الثقافي، ((فهذه القاعدة التي بنى عليها مؤرخو الأدب تقسيماتهم للعصور الأدبية خاطئة من هذا الوجه ، ولعمري أنّ عصرا ينبع فيه من الشعراء : الرضيُ ،

---

[1] -المرجع السابق ،ص189.

[2]- حنا الفاخوري ، الجامع في تاريخ الأدب العربي ، دار الجبل ،بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ،1986 ، ص522.

[3] -المرجع نفسه ، ص 523.

و المتنبي ، و أبو العلاء ، ومن الكتاب ابن العميد ، وابن عباد، ومن الأدباء أبو هلال ... و الآمدي ، و الجرجاني ، ومن النحويين : ابن خالويه، وابن جني و أبو علي الفارسي و السيرافي، عصر ينبع فيه هؤلاء و غيرهم ... لخليق أن يكون عصر رقي ونهضة لا عصر ضعف و انحطاط في العلوم و الآداب.)) [1]

ويرى الباحث خليل شرف الدين أنه من ((الطبيعي أن ينهار كل شيء في العصر العباسي الثالث – وهو عصر أبي العلاء – كدولة ومؤسسات ومجتمع ، وأن يزدهر – في الوقت نفسه – كل شيء من أشياء الفكر فتبلغ الفلسفة أوجها ، ومعركة علم الكلام نهايتها ، والشعر قمته ، والنثر أعلى مراقي بلاغته ، وأنقى صوره ، فأصبح وكأنه فسيفساء ترصع بها جدران الأدب العربي، و سقوف منزله ، بالرغم من أن سكان هذا المنزل بدأوا يغادرونه واحد بعد واحد ... أما العلوم وهي الوجه الآخر للفكر ، فقد حققت في هذا العصر نصرا مبينا لاسيما في ميادين التطبيق و الممارسة.)) [2]

((وكانت نقطة التحدب أو قمة العطاء في هذه الدائرة الذهبية ممثلة بهذا العصر أو قريب منه ، كما كانت القمة نفسها نذيرا بالانحدار الوشيك، إذ ما لبثت أن تخلخلت وتصدعت ومال بها حملها نحو الحضيض السحيق ، فهوت رغم تماسكها زمنا امتد حتى ابن الرشد في الفلاسفة و المعري في الشعراء ...، وابن عربي ... في الصوفيين.)) [3]

((فظاهرة الازدهار تحمل دائما في طيات أسرارها ، جرثومة الانهيار ، و المجتمع كالإنسان خاضع لقانون التطور الطبيعي ، فلم يكن غريباً أن يرافق الانهيار الازدهار ، أو يتولد عنه وفقا لمبدأ العلة و المعلول أو حتمية ظهور الشيء متى توافرت أسبابه .))[4]

[1] - طه حسين ، تجديد ذكرى ابي العلاء ، ص38 بتصرف .
[2] - خليل شرف الدين ، ابو العلاء المعري مبصر بين عميان ، دار مكتبة الهلال ، بيروت لبنان ، د ط ، 1995 ،ص 7.
[3] - المرجع نفسه ، ص 8.
[4] -المرجع نفسه ، ص9.

أبو العلاء إذن ظاهرة طبيعية من حيث مفهومنا لقانون التطور في المجتمع و الفكر إذ من الطبيعي أن يمثل ابو العلاء في عالم الشعر و الفكر و النثر منتهى درجات التطور التي بلغها العرب في ذلك العصر، وأن يمثل في الوقت نفسه جرثومة ذاك الانهيار .

لكنه ظاهرة غير طبيعية أو هو نسيج وحده حين نقيسه بإنسان عصره : رجل دين كان هذا الإنسان ، أو سياسة أو فكر أو سلوك؟ .

((لم يتعامل شاعرنا من ناس عصره ليكتشفهم أو يغريهم أو يستغلهم أو يصل من خلالهم كما فعل المتنبي – على عظمة و إيجابية ما فعل أبو الطيب – بل رثى لهم وتعامل مع نفسه أولا ثم مع الوجود مباشرة فبدا له الموجود بالنظر التأملي الثاقب :سخيفا ورائعا في آن ... سخيفا عندما ينقلب المسخ بطلا في غفلة من الزمن و يظن القزم نفسه عملاقا ... ويتصرف كل منهما على هذا الأساس ،سخيفا حين يزيف الحكام وظيفتهم فينقلبون جلادين للشعب بدل أن يكونوا أجراءه ... سخيفا يوم يرى رجال الدين يمشون في الناس بأثقالهم و أوزارهم ... ويتخذون من الدين مطية مجرد مطية ... حتى يستدعي الأمر الشك بالدين نفسه ، سخيفا عصر تتقلب المقاييس و تتطاحن القيم ، و القيمون عليها شاهدوا زور، ورائعا ... حين يرفض العقل كل هذا ... أو يتحرر من كل هذا فينقلب إنسان هذا العقل نموذجا .. بعد أن كان ظلا ورسما بعد أن كان اسما و بضعة من حياة رائعا حين تسمع ابا العلاء يحس أنه قادرا على التعبير و التغيير ويحاول التفجير و التدمير و سلاحه لا سلاح سوى العقل – الكلمة – و الكلمة قنبلة ، كل سلاحه موقف ولا حياد ،وسخرية ولا تجريح، ورثاء ولا بكاء.)) [1]

((في ذاك العصر الثقافي المتميز من عصور الحضارة العربية وقف أبو العلاء شاعرا متأملا و فيلسوفا متحيزا ، فزاد عصره تميزا بل وتميز من عصره فأبصر مالم يستطع المبصرون

[1]-المرجع السابق ،ص 12.

أن يروه أو لعلهم رأوه لكنهم أغمضوا عيونهم عنه زلفى أو دجلا أو رياء أما هو فقد أبصر ولم يغض طرفه وكان صادقا مع نفسه حين كذبوا هم مع أنفسهم وربهم وحقيقتهم.)) [1]

((في تلك الفترة خرج الشعر على يد أبي العلاء من دائرته القديمة الضيقة دائرة العبث و الفردية و القبلية و المدح و الارتزاق الرخيص ، ليدخل دائرة أوسع، مداها الكون و الإنسان حيث يتم تسجيل المواقف من القيم و الحقائق ،و كشف الزيف فيها بقصد التغيير ،و هذه هي الدائرة العالمية للشعر.

لم يعد الشعر على يد ابي العلاء وسيلة للعيش الرخيص، أو الكذب المغلق و الشتم الصبياني الأخرق بل أصبح وسيلة للفكر المتأمل وبوتقة يسكب فيها الوجدان الصادق ،وتعبير مشع عن حقائق الوجود و الموجود ونقدا ساخرا لكل ما يشوههما)) .[2]

[1]- المرجع السابق ،ص 31.
[2] -المرجع نفسه ،ص31.

مكونات الشخصية : الانفرادية / التميز

1-المكونات النفسية :

1-التشاؤم :((كان أبو العلاء نادرة من نوادر الزمان، ذكاء متوقدا ، حافظة عجيبة ، وروحا ساخرة ،و ثقافة واسعة ، وكان إلى ذلك شديد التشاؤم لايرى في الوجود وفي الناس الا شرا وسوءا ولا ينظر إلى الناس و الوجود إلا من خلال ظلمة عماه.)) [1]

ويصفه علي شلق بقوله :((سوداوي المزاج ، متوتر الاعصاب ، مشبوب الحواس ، يتوقع الشر من كل جانب ، يرى في الناس و الموجودات أعداء يتربصون به ، فابن الرومي قبله رأى في أمواج دجلة فرسانا يقبلون عليهم بسيوفهم لتقطيعه :

كأني أرى فيهن فرسان بهمة   يليحون نحوي بالسيوف القوا ضب:

من كان في هذا التركيب الفسيولوجي أو ما يشبهه يمتاز بشفافية النفس وبعد الخيال وغرابة الإبداع، ينسج أفكاره من جسده من أعضائه ويقف موقف المغالاة من كل شيء حسب رؤيته مثله الاعلى ، وهذا الصنف يكثر فيهم المهووسون ، و الخارجون على كل نظام، مثلما يخرج من نطاقهم عباقرة نادرون.)) [2]

ويرى كثير من الباحثين أن التشاؤم من أبرز السمات النفسية لأبي العلاء، و ((التشاؤم ليس – عند التحقيق – من الفلسفة ولكنه يأس وقنوط من الحياة، ولا يقوم تشاؤم الرجل العادي عادة أو تفاؤله على أسس نظرية ولا على مذهب فلسفي، ولكنه على أحوال نفسية عارضة في حياته العملية العامة و الخاصة ، ويكون الإنسان متأثرا في حاليه تشاؤم وتفاؤل بما يرافق حياته من فقر أو غنى ومن صحة أو أسقام ومن نجاح أو خيبة.)) [3]

[1] -حنا الفاخوري ، الجامع في تاريخ الادب ، ص 845.
[2] -علي الشلق ، ابو العلاء و الضبابية المشرقة ، المؤسسة الجامعية للدراسات و التوزيع ،ط 1 ، 1981،ص 9.
[3] -عمر فروخ ، حكيم المعرة ،دار لبنان ، بيروت لبنان ، د ط ، د ت ، ص86.

((و التشاؤم يكثر في الفلسفة الشرقية و البوذية على الأخص، ويظهر في التصوف ، و لكنه نادر جدا في الفلسفة الأوربية الحديثة، إلا ما نرى عند شوبنهور ، وأما المعري فمتطرف في تشاؤمه لا يرى من الحياة إلا الناحية السوداء، حتى لو أن الحياة تعرضت له بناحيتها، البيضاء لأعرض عنها، وتأمل ذلك كله في قوله

عرفت سجايا الدهر أما شروره فنقدٌ ، و أما خيره فوعود

اذا كانت الدنيا كذاك فخلها ولو أن كل الطّالعات سعود))[1]

((و المعري حين ينظر لغرائز الناس لا يرى فيها إلا شرا ،وأن الإنسان شرير بطبعه، و أن الفساد غريزة فيه، و لذلك لم ينتظر له اصلاحاً و لم يرج لأدوائه شفاء.)) [2]

فيقول في هذا :

غلت الشرور ولو عقلنا صيرت دية القتيل كرامة للقاتل

ويقول :

أعاني شرورا لا قوام بمثلها و أدناس طبع لا يهذبه صقل [3]

((ولم يكن تشاؤم أبي العلاء في الدنيا بأحسن من تشاؤمه في الانسان، فقد كان لها قالياً وعليها زاريا، ومن لؤمها وخستها اشتق لؤم الإنسان وخسّته، حتى أصبح وإنه لأكثر الشعراء ذما للدنيا، ومحاولة الاستدلال على ذلك من شعره ضرب من الإطالة ،فإن الرجل لم يعرف بخصلة أظهر من ذم الدنيا .))[4]

[1] ـ المرجع السابق ،ص88.
[2] ـ طه حسين تجديد، ذكرى أبي العلاء ،ص273.
[3] ـعمر فروخ ،مبصر بين عميان، ص 87_ 88.
[4] ـالمرجع نفسه، ص 279.

وبلغ التشاؤم عند أبي العلاء نهايته عندما كره أبو العلاء الوجود و آثر العدم وتمنى للوليد ألا يولد و للحي أن يفنى فقال :

فليت وليداً مات ساعة وضعه   ولم يرضع من أمه النفساء

((وقد أكثر من ذلك حتى تجاوز القصد، ومن هنا رأى أن من الواجب اتقاء الوجود و الاجتهاد في قطع سلسلته بالإعراض عن النسل الذي هو الحافظ لهذا الوجود، وعدَّ أبو العلاء النّسل جناية على الأبرياء لأنه إلقاء الأبناء في بيئة مملوءة بالشرور ، وفي ذلك يقول :

على الوليد يجني والد ولو أنهم   ولاة على أمصارهم خطباء

وزادك بعدا من بنيك وزادهم   عليك حقودا أنهم نجباء))[1]

وقد قدمنا أن التشاؤم عند ابي العلاء ليس من الفلسفة، و لكنه يأس وقنوط من الحياة كان لأسباب رافقْ حياته وصنعت مزاجه السوداوي ،ومن تلك الأسباب التي صنعت مزاج ابي العلاء محنة العمى و موت الأبوان .

أ– محنة العمى :

أصيب أبي العلاء بالعمى وهو في سنه الرابعة، يقول أحمد تيمور باشا في كتابه أبو العلاء المعري : ((أصيب بالجدري أول سنة 368 غشى يمنى عينيه بياض ، وذهبت اليسرى جملة ، وكان يقول : لا أعرف من الألوان إلا الأحمر لأنهم ألبسوني حين جدرت ثوبا معصفراً لا أعقل غير ذلك ، وقال في إحدى رسائله إلى داعي الدعاة : وقد علم الله أن سمعي ثقيل وبصري عن الإبصار كليل، قضى علي و أنا ابن اربع .)) [2]

((في ذلك الحين لم يكن صبي قد نضج وعيه أو اتسعت مداركه بحيث يقدر فداحة المحنة وهول المأساة وقد دربه أهله في طفولته على مواجهة عالم الظلام، و راضوه عليه حتى خيل إليهم

---

[1] -المرجع السابق ، ص 288 .

[2] -أحمد تيمور باشا ، أبو العلاء المعري ، كلمات عربية للترجمة و النشر ، مصر ، د ط ، د ت ، ص 19 .

و إليه أنه ألفه و اعتاده ، غير أنه لن يلبث أن يدرك مع نضج السن و الوعي ، أن مأساة حياتها كلها بدأت بتلك الآفة التي قضت عليه وهو ابن أربع .))[1]

وهذا ما نسمعه في كثير من أشعاره في اللزوميات ،حيث يطيل الحديث عن محنة العمى،وعن الظلام الدامس الذي لا ينجاب و الليل الطويل الذي لا ينجلي، و يعد من مزايا ضجة القبر أن تأمن العين المنطفئة في الثرى من مصاب عمى أو آفة الرمد .

((وإن كان هو يتظاهر أحيانا بقوله : أحمد الله على العمى كما يحمده غيرى على البصر، وليس هذا القول من المعري ومن بشار قبله إلا من باب التعزي و التجلد، وقد يخون شاعرنا أحيانا تجلده فيشير إلى شكوى مريرة في نفسه من هذه العاهة :

عمى العين يتلوه وعمى الدين و الهو ى فليلتي القصوى ثلاث ليال))[2]

كما يرى عمر الفروخ أن عمى المعري هو السبب الرئيس والدافع الأساسي لتشاؤم عند أبي العلاء.

ب–موت الأم :

((كان أبو العلاء في بغداد وأثناء عودته منها إلى بلدته المعرى بلغه نعي أمه ،فكان لوقع هذا الخبر في نفسه شديد الألم و لاذع الحزن، ما أنطقه بقصيدتين مسطورتين في سقط الزند وبكثير من النثر المسطور في الرسائل، وتمم لنفسه بناء هذا البيت المظلم من الحزن الذي لزمه بقية حياته.))[3]

((كان لهذا الخبر في نفس أبي العلاء صورة عنيفة بذل فيها آخر ما كان يملك من ثقة الدهر، و اطمئنان إلى الأيام، وإذا بالنحيب يقوى عنده ويشتد بفقد سلوته المتبقية، و التي كان يدخرها

1- عائشة عبد الرحمان، مع أبي العلاء المعري في رحلة حياته ،ص44.
2- عمر فروخ، حكيم المعرة ،ص 34.
3 -طه حسين ، تجديد ذكرى ابي العلاء ص 105.

عزاء يضمد به جراح الأيام، فهالته الفاجعة حتى بات لا يفصل بين الحمد لله و الصلاة على نبيه، وبين مدامعه ووجده و أحزانه لفراقها .)) [1]

لقد كان التشاؤم عند ابي العلاء نتيجة مصائب عدة حلت في حياته((فقد بصره ولم يجاوز الرابعة من عمره ، ومات الأب وهو لم يبلغ الخامسة عشر، و لزمه أثقل الأصحاب ظل و أسمجهم مظهرا و أقبحهم جواراً، وهو الفقر وعثور الجد ثم أخلفه الامل و عده ونجز إليه اليأس وعيده ،فشخص من بغداد كارها ، وانه لفي الطريق يسايره الحزن ، ويقوده الأسى ويحدو به الفشل،وإذا النعي يلقاه بموت تلك التي يدخرها سلوة .))[2]

كل هذه الأسباب وغيره من المصائب هي التي أنتجت لنا تلك النفسية المبدعة المتشائمة نفسية ابي العلاء.

2-المكونات الفكرية

أ-**اتباع العقل** : يرى المعري أن على الإنسان أن يتبع عقله في الأمور كله،((في الأمور المحسوسة و في الأخلاق وفيما وراء الطبيعة ، وإن كان المألوف بين الناس أنهم يصدقون الكاذب ولو كانت أقواله غير مقبولة في العقل ، ثم يكذبون الصادق ولو كان كلامه هو القول المعقول ، أما المعري نفسه فأعلن أنه لن يقبل إلا ما يدعو إلى الخير، و إلى ما يشير به العقل

يكذب العقل في تصديق كاذبهم   و العقل أولى بتصديق و إكرام

ويقول :

سأتبع من يدعو الى الخير جاهدا   و أرحل عنها ما إمامي سوى عقلي))[3]

---

[1]- أحمد تيمور ،أبو العلاء المعري ،ص 25.
[2] -المرجع نفسه، ص 150.
[3] - عمر فروخ ، حكيم المعرة، ص 89.

((ويربط أبو العلاء الفساد في المجتمع إلى عدم الإصغاء لصوت العقل و اتباع الهوى و الفرض و المنجمون السحرة – لا علماء الفلك – الذين يرجمون بالغيب ، هؤلاء يسيئون الى العقل كثيرا

سألت منجمها عن الطفل الذي   في المهد كم هو عائش من دهره ؟

فأجابها مئة ليأخذ درهما   و أتى الحمام وليدها في شهره))[1]

ومع أن العقل لا يستطيع أن يعرف كل شيء ((لأن المعرفة الحقيقية و المعرفة الكاملة تعييان على البشر، فإن المعري يحب أن يتبع الانسان العقل في كل ما يفعل، و أن يترك التقليد،وإن هناك أمورا كثيرة قبلها الناس عمن سبقهم ، من غير أن يعملوا فيها فكرهم ، كما أن هنالك قوماً آخرين يعملون أعمالا لا تتفق ووجود العقل في البشر ،فان المعري ينتقد هؤلاء وأولئك جميعا ،ثم يحثهم على الاهتداء بنور العقل في كل شيء :

فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة   إذا لم يؤيد ما أتوك به العقل

ويقول أيضا :

كذب الظن لا امام سوى العقـ   ـل مشيراً في صبحه و المساء

ويقول

فشاور العقل واترك غيره هدرا   فالعقل خير مشير ضمّه النادي))[2]

[1] - خليل شرف الدين ، مبصر بين عميان ، ص141.
[2] -عمر فروخ ، حكيم المعرة، ص 91 .

ب- النظرة الواقعية :

((وإلى جانب المبادئ المثلى التي يحب المعري أن يسير الناس بها في صلات بعضهم ببعض ، نجد له مواقف واقعية في الحياة البشرية، فالمعري يرى بوضوح أن كل ما يطرأ على الإنسان في حياته يعود إلى تأثير تلك العوامل المادية التي تتفاعل في هذه الطبيعة التي نعيش فيها، يقول المعري :

تداولني صبحٌ ومسيٌ وحنداسٌ ومر علي اليوم و الغد و الامس

يضيء نهار ثم يخدر مظلمٌ ويطلع بدرٌ ثم تعقبه شمسٌ))[1]

((وهذا القانون جاري في الطبيعة – وهو ان الاحوال الطبيعية هي التي تصرف الانسان في حياته – يحاول المعري أن ينقله أحيانا إلى الحياة الاجتماعية فيشير على الإنسان بأن يكون واقعيا، يقبل الأمور على ما تجري عليه من غير محاولة للكفاح في أحوال لا يبدو الكفاح فيها نفعا ملحوظا :

رأيت سكوتي متجرا فلزمته إذ لم يفد ربحا فلست بخاسر

وقال أيضا :

إذا علمي بالأشياء جر مضرة إليّ فإن الجهل أن أطلب العلم)) [2]

((وكان المعري كثيراً ما يترك الجدال في وجوه العمل بأمور الدين، ودعا كل مسلم أن يقوم بفروض الإسلام بإخلاص ونظام وعدم الانشغال بالتفاصيل بين آراء الفقهاء في ذلك :

---

[1] - المرجع السابق ،ص 92 .

[2]- المرجع نفسه ، ص 93 .

فعفوا وصلوا و اصمتوا عن تناظر   فكل أمير بالحوادث يعزل

استغفر الله و اترك ما حكا لهم   أبو هذيل و ما قال ابن كلاب))[1]

ج- التقية الفكرية

كما قدمنا في المبحث السابق حول نفسية أبي العلاء وأنه كان شديد التشاؤم شديد سوء الظن بالناس((شديد الحذر منهم فكان يحتاط أشد الاحتياط في إظهار أرائه التي تخالف ما اتفقوا عليه))[2].

كان يلجأ((إما لكتمانها – ولعله كتم كثيرا مما يعتقد– و إما إلى الإعراب عنها بصورة رمزية وتراكيب معقدة ،أو بالتلميح فقط، و إما أن يذكر الحقائق المجردة من كل تعليق وتعليل ، ثم يذكر معها أمورا ينفر منها الناس عادة بطبعهم، فإذا وازن الناس بين ما قبلوه وهم يستحسنونه وما يرفضونه عادة وهم بلا ريب يستقبحونه ، ثم رأوا أن الأمرين شبيهان ، أدركوا ما أراده المعري من غير أن يذكره هو صراحة .))[3]

وفي كثير من الأحيان يذهب مذهب المجاز في إظهار آرائه و إن في نفسه سرا لن يظهر الناس عليه وفي ذلك يقول :

و اصمت فان كلام المرء يهلكه   و اذا نطقت فإفصاح و إيجاز[4]

و يقول :

وليس على الحقيقة كل قولي   ولكن فيه أصناف من المجاز

ويقول :

اهوي الحياة وحسبي من معايبها   أني أعيش بتمويه وتدليس

---

[1] -المرجع السابق ، ص 94 .

[2]- طه حسين، تجديد ذكرى أبي العلاء ص 243.

[3] -عمر فروخ ، حكيم المعرة، ص 81

[4]- طه حسين ، تجديد ذكرى أبي العلاء، 244

فأكتم حديثا لا يشعر به أحد   من رهط جبريل أو من رهط إبليس

((ولا ريب في أن لتقية المعري هنا كما لتقية أكثر الفلاسفة ، هدفين : أولهما خوف المعري من ان يناله أذى العامه و أذى الخاصة ، وثانيهما أن على الفيلسوف واجبا تهذيبيا نحو المجتمع فيجب على الفيلسوف ألا يزعزع إيمان العامة بأن يلقي إليهم شبهات تضرهم ولا تفيدهم ،إلا أن يستطيع أن يرمز أحيانا أو يشير إلى بعض إغراضه من طرف خفي بعض الخفاء فيفهم عنه الخاصة من غير أن تتأثر به العامة .))[1]

د–التفكير العلمي :

((ومع أن المعري يرى أن الإنسان يعيش بقوانين من العقل وبدافع من الارادة – وهذا هو فضل الإنسان على الحيوان و على الجماد – فهو لا ينسى أن لكل أمر في حياة الإنسان الاجتماعية وجهين : وجه نظريً، ووجها عملي.))[2]

((ويرى المعري أن ثمة أمور كثيرة يشغل الإنسان بها نفسه ، وهي لا فائدة منها ويخص بالذكر شيئين اثنين : كثرة الجدال في الدين و العلم مما لا يؤدي إلى خير، ثم الإغراق في القيام قياما شكليا فقط بأمور فرضها الدين من الصلاة و الصيام و التسبيح ، إن المعري يوجب على المسلم القيام بالفروض الدينية على المنهاج المكتوب من غير إغراق فلقد رأيناه مرة يقول :

وصومه الشهر مالم يجن معصية   يغنيه عن صومه شعبان أو رجبا

إن المعري يفضل أن يصوم المسلم الشهر المكتوب عليه – اي رمضان – صياما صحيحا لا رياء فيه ولا مخالفة للشرع معه على أن يصوم شهري رجب وشعبان موصولين بشهر رمضان ثم يجيز لنفسه في اثناء ذلك كله على أن يحرر نفسه من عدد من قوانين الحياة الاجتماعية.)[3]

[1] -عمر فروخ ، حكيم المعرة، ص 87 .
[2] -المرجع نفسه ، ص 91 .
[3]- المرجع نفسه ، ص 92 . بتصرف .

انتاجه الادبي (الإبداع / الانزياح)

1- **سقط الزند:** ويمثل((شعر أبي العلاء الشاب ، نسج فيه على منوال الأقدمين فتابع تقاليد الشعراء في نظم المدائح و الحكم ، و المراثي و التهاني و الفخر و الوصف و الغزل و الشكوى و الاستعطاف و الاعتذار و الهجاء .))[1]

((نشر ديوان سقط الزند بالقاهرة سنة 1869 ثم نشر مع ضوء السقط بشرح شاكر شقير في 3 أجزاء ببيروت سنة 1884 ثم في مصر سنة 1945 في أربعة أجزاء.)) [2]

ويحصي الأستاذ عبد العزيز الميمني شعر سقط الزند بثلاثة آلاف بيت [3]

((وأبو العلاء هو الذي رتب سقط الزند ، كما أنه الذي رتب اللزوميات و الدرعيات و الرسائل ، وقد كان الرجل على كلامه شديد الحرص على آثاره، عظيم العناية بهم، كأنه كان يخشى أن يكون بعض الناس له وشكهم في دينه ، حائلا بينهم وبين جمع كلامه وتدوينه ، ولكنه لم يرتب سقط الزند ولا غيره من كتبه ترتيبا تاريخيا ولا فنيا ، فخلط المدح و الوصف و النسيب و الرثاء، ولم يعين تواريخ القصائد ولا مواقيتها.))[4]

وقد قسم طه حسين في كتابه" تجديد ذكرى أبي العلاء" شعر" سقط الزند" باعتبارين مختلفين ،أحدهما: تقسيما تاريخيا، و الثاني تقسيما موضوعيا ،((فأما التقسيم التاريخي: فجعل فيه حياة أبي العلاء أطوار ثلاثة أحدها طور الصبا، وينتهي سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة ، حين بلغ العشرين و الثاني طور شبيبته وينتهي سنة أربعمائة حين عاد من بغداد و اعترف بانقضاء شبيبته في رسالته إلى أهل المعرة و الثالث طور الكهولة و الشيخوخة وينتهي بموته))[5].

---

[1] -علي شلق،أبي العلاء والضبابية المشرقة ، ص 20.
[2] -خليل شرف الدين، حكيم المعرة ص 71.
[3] -ع العزيز الميمني ، ابو العلاى وما اليه ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، د ط ، د ت ،ص 108.
[4]- طه حسين ،تجديد ذكرى أبي العلاء ،ص 182.
[5] -المرجع نفسه ،ص181 .

و أما التقسيم الثاني باعتبار((ما يشتمل عليه من الفنون ، فيشتمل سقط الزند على المدح و الفخر و الوصف و الرثاء و النسيب و ليس فيه من الهجاء شيءٌ ، ولم يتعرض لوصف الخمر ولا الصيد ولا الغلمان ، وليس فيه من فنّ الحكمة و الحماسة إلا ما يمكن أن يلم به في طريقه الى المدح أو الفخر أو النسيب.))[1]

تميز سقط الزند :

يمكن إدراك تميز ديوان سقط الزند عن غيره من دواوين الشعراء، بدأ من عنوانه يقول الأستاذ خليل شرف الدين :((ويلاحظ في مؤلفات أبي العلاء أنها تحمل عناوين رمزية غريبة، جاءت نتيجة مقدرته على الغوص في أعماق مدلولات الكلمات العربية ،التي تزخر بها لغتنا ذات الاشارات البعيدة و التعابير المشحونة بالجرس و الظلال و الإيحاء و المجاز ،و الأمر الذي لا يتأتى معرفته إلا لمن كان مثل أبي العلاء تخصصا بأسرار اللغة وتحسسا بمراميها و إيحاءاتها و جماليتها التعبيرية و الإيقاعية بشكل عام.)) [2]

فنجد أن أبا العلاء وقد بدأ نظم هذا الديوان في فترة شبابه فلم يسميه شعري في الشباب – مثلا – أو التجربة الأولى و إنما سماه " سقط الزند "،((إمعانا في التورية و الغموض ، و السقط هو أول النار الخارجة من الزند ، و الزند هو العود الذي يقتدح به ، فكأنه أراد أن يقول : إنه أول شعاع تألق في سراج شاعر .... و أبو العلاء في هذه العناوين – الرموز – يبدو مغاير لعصره الذي أكتفى بالألاعيب البيانية الجافة ، ..... وتجاوزها و ارتفع عنها بما أوتى من شاعرية فذة وعمق في فهم لأسرار اللغة، فلم يتله كغيره بالقشور و الأساليب الشعرية الروتينية الباردة.))[3]

و أما بالنسبة لموضوعات سقط الزند و إن كانت في أكثرها عادية روتينية ،تدور على ما دارت عليه قصائد شعراء عصره ،من مدح و رثاء وفخر، غير أننا نجد في هذا الديوان قصيدة أنشأها في رثاء ابا حمزة ،جزم طه حسين((أن العرب لم ينظموا في جاهليتهم ولا إسلامهم ولا في

[1] -المرجع السابق ،ص 190 .
[2] -خليل شرف الدين ،مبصر بين عميان ،ص 72 .
[3] -المرجع نفسه ، ص 72 .

بداوتهم وحضارتهم قصيدة تبلغ مبلغ هذه القصيدة في حسن الرثاء، نتهم ذوقنا، ونتهم أنفسنا بالتعصب لأبي العلاء إشفاقا على الآداب العربية ألا يكون فيها من الرثاء الجيد ما يعدل هذه القصيدة، ولكننا نضطر بعد الدرس و إجادة البحث إلى تبرئة أنفسنا من هذه التهمة)) :

غير مجدي في ميلتي و اعتقادي نوح باك ولا ترنم شاد

وشبيه صوت النعي إذا قيس بصوت البشر في كل ناد

أبكت تلكم الحمامة أم عنت على فرع غصنها المياد [1]

يقول طه حسين: ((أي معنى أصح و أي لفظ أمتن !!! اي أسلوب أرقى و أي تركيب أرصن !! أي معرض يستثير حزن القلوب ويستق ماء الشؤون ، أترى أن البكاء يرد مفقودا و أن الغناء يحفظ موجودا ؟)) [2] بهذه الكلمات من طه حسين أثنى و أثنى على رثاء المعري لأبي حمزة، وجزم أن هذه القصيدة أفضل قصيدة في الرثاء سمعتها أذنه .

2-رسالة الغفران :

((نشرت أول مرة في القاهرة سنة 1907 وقف على طبع و تصحيح النصف الأول منها الشيخ إبراهيم اليازجي بتكليف من أمين هنديه الناشر .لكن المنية عاجلت الشيخ إبراهيم، فأتم التصحيح الباقي أحد علماء الأزهر، ثم نشرت مختصرة مشروحة بعناية كامل كيلاني بمصر سنة 1925 .وفي مطلع الخمسينات قامت الأديبة المحققة المعروفة "الدكتورة عائشة عبد الرحمان بنت الشاطئ " بنشرها في مطبعة علمية محققة بمصر 1950 ، وللرسالة ملخص واسع باللغة الفرنسية مع ترجمة بعض المقاطع ظهر في باريس سنة 1937 بعناية "ميسي " أما سائر

[1] -طه حسين تجديد ذكرى أبي العلاء، ص 173.
[2]- المرجع نفسه ، ص 173 .

المستشرقين فقد عنوا بالرسالة عناية فائقة مثل" نيكلسون "و سواه لكنهم ظلوا دون مستوى التحقيق العلمي الكامل للنص.))[1]

موضوع الرسالة :

((أملى أبو العلاء هذه الرسالة الجوابية وقد مضى على عزلته قرابة ربع قرن، وكانت شهرته قد طبقت على الآفاق العربية، و راسله الكثيرون مستفسرين ومستطلعين خصائص هذا الفكر الجديد و الشاعرية الفذة ،من بينهم العلامة الفهامة المحدث علي بن منصور الحلبي الملقب بابن القارح، الذي وجه من حلب إلى أبي العلاء من المعرة رسالة يستوضحه فيها بعض مسائل الفقهية، وبدلا من أن يجيبه برسالة عادية مباشرة ،جعله يصعد إلى السماء و يرى بنفسه كيف جرت وتجري الأحكام الإلهية ، حيث سيره المعري إلى الجنة و الجحيم و أجرى مقابلة بينه وبين النابهين من شعراء الجاهلية و الاسلام، و تجاوز هؤلاء إلى لقاء النبي صلى الله عليه وسلم، و ابنه إبراهيم و ابنته فاطمة.))[2]

((و يسأل ابن القارح المخلدين في الجنة : بم غفر لكم ؟ و المخلدين في النار : بما لم يغفر لكم وماذا جنيتم ؟ ولكثرة ما ورد من أسماء الغفران ومشتقاتها سميت الرسالة " رسالة الغفران"))[3]

تتوزع الرسالة الى ستة فصول :

الفردوس – حكاية ابن القارح – نعيم الفردوس – جنة العفاريت – الجحيم – العودة الى الفردوس .

[1] - خليل شرف الدين ،حكيم المعرة،ص 74.
[2] - علي شلق : أبي العلاء وضبابية المشرقة ، ص 48
[3] - خليل شرف الدين :مبصر بين عميان، ص 75

ويقسم خليل شرف هذه الابواب الى قسمين ((الاول استعراض حسي للجنة و أنواع اللذات فيها ، و الثاني إجابات مباشرة على أسئلة ابن القارح)) [1].

مميزات الرسالة :

يمكن أن نجد ما يميز "رسالة الغفران" عن سائر رسائل أدباء عصره في القسم الأول منها، ((حيث تحتشد جميع خصائص أبي العلاء الأسلوبية الحسية و السخرية الحقيقية أو التهكم الملغوز، و خصائص التفكير العلائي المتميز بالعمق و بعد الإشارة، إلى جانب تنوع الثقافة لديه ،وتعدد مصادرها وغزارة المعلومات الأدبية التي تختزنها حافظته العجيبة، فيروح على لسان ابن القارح يحاور الأدباء و الشعراء فيها، سواء كانوا في الجنة أو في النار ، ينقدهم و يصحح أرائهم أو يثني على بعضهم و يبدوا أعلم منهم))[2] فأفرغ المعري على لسان ابن القارح ((كل ما في جعبته من عويص الالفاظ وبعيد المعاني و عميق المغازي و جارح النقد بأسلوب ساخر طال وتشعب حتى عد كتابا كبيرا هو " رسالة الغفران " كما أفرغ كل ما يضيق به من الناس و سخافتهم و الدنيا وهمومها فارتفع به خياله الذي ضاق هو الآخر بالأرض إلى السماء إلى العالم الآخر فجمع الناس في ابن القارح))[3]، وقد نوه خليل شرف الدين بما في رسالة الغفران من خصائص فنية فذكر منها :

أ- النفس المسرحي التمثيلي الذي لم يعرف عند فحول المطولات

ب- الخيال الدرامتيكي الواسع الذي أعان أبي العلاء على الشطح و الانتقال ببطله " ابن القارح " الى العالم الآخر و تركه يتصرف بحرية تامة .[4]

---

[1]- المرجع السابق ص 76.
[2] -المرجع نفسه، ص 76.
[3] -المرجع نفسه، ص77.
[4] - المرجع نفسه ، ص 77 .

بعض ما قيل في رسالة الغفران :

يقول طه حسين : ((من قرأ رسالة الغفران و أراد أن يفقه معناها حق الفقه ، احتاج إلى دقة الملاحظة ، وحذق فطنة ، وبعد نظر ، ونور بصيرة ، والى أن يدرس روح الكاتب فيحسن درسه ويعرف أغراضه ، ذلك أن أبا العلا يسلك في هذه الرسالة إلى النقد ، مسلك خفيا ، تكاد لا تبلغه الظنون ، ولولا أن مؤرخيه ، قد كانوا يسيئون الظن به لما اهتدوا إلى ما في رسالة الغفران من النقد.))[1]

و يقول علي شلق : ((" الغفرانية" تحفة الأدب العربي التي لا ترقى إلى أفاقها رائعة و إحدى مميزات الأدب العالمي ، عظمتها في أنها نمط اعلى من الخيال الأدبي و مدار شك خفي ساخر ورفض مبطن بإنكار.))[2]

ويقول أيضا : ((" الغفرانية " معرض عبث بالألفاظ و الزخرف ، الصور ، ومجال ثقافة مشرقة تظل من قيم حضارة القرن العاشر و إطاره العالمي في النقد . ويقول العقاد إن رسالة الغفران نمط وحدهما في آدابنا العربية أسلوب شائق ، ونسق طريف في النقد و الرواية ، وفكرة لبقة لا نعلم أن أحد سبق المعري إليها .))[3]

3-اللزوميات :

اللزوميات أو ديوان لزوم مالا يلزم مجموعة شعر تمثل مرحلة ما بعد" سقط الزند " حيث معظم شعر الشباب ، فاللزوميات صوت أبي العلاء المكتمل النبرات و النغمات ، إنه تشيد الوجع، و الحيرة و النقمة ، و العدم ، أطلقه وهو أنضج ما يكون تجربة و أعمق ما أوغل حساً

[1] ـ طه حسين تجديد ذكرى ابي العلاء، ص 221
[2] ـ علي شلق ، أبو العلاء و الضبابة المشرقة ص 47
[3] ـ المرجع نفسه ، ص 53

و تأملا ،و أبعد بعدا لمس به فلك الدائرة وهي تسعى لأمر ، فصور المبدأ و المصير بجرأة لم نعهدها من قبل.)) [1]

وهو ديوان ضخم يقع في نحو من ثمانى مئة صفحة من القطع المتوسط سماه أبو العلاء لزوم مالا يلزم لأنه التزم فيه ثلاث كلف :

الأولى : بناء القصائد على جميع حروف المعجم

الثانية : إيراد الروي في كل من الحروف بالحركات الثلاث و السكون

الثالثة : لزوم بعض الحركات و الحروف مع الروي معا

وهذا الديوان وليد عهد العزلة أخد المعري في نظمه بعد أن عاد من بغداد إلى المعرة ، على الأشهر، و لا نعلم بالضبط كم من السنين سلخ في نظمه .))[2]

تميز اللزوميات :

((لفظ اللزوميات أو لزوم ولا يلزم ، هو شعار أبي العلاء في جميع أطوار حياته ، بعد رجوعه من بغداد ، فقد التزم في شعره و نثره و سيرته أشياء لم يلتزمها من قبل ، ولم يكن من الحق عليه التزامها و إنما آثرها حين راض نفسه على تكلف المشقة و احتمال المكروه .))[3]

فإذا كان الشاعر يبني قوافيه على حرف روي واحد لا يعدل عنه في القصيدة كلها فإن المعري لم يكتف بأن يكون له في كل مقطوعة من شعره الحكيم حرف روي واحد بل جعل ذلك حرفين على الأقل :

---

[1] - المرجع السابق،ص 28

[2] - كمال اليازجي ، جولة في لزوميات المعري ، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1942، ص 108.

[3] - طه حسين ، تجديد ذكرى أبي العلاء ص 202

إن كان من فعل الكبائر مجبرا فعاقبه ظلم على ما يفعل

و الله إذ خلق المعادن عالم أن الحداد البيض منها تجعل

فالمعري لم يكتف باللام بل التزم قبلها العين أيضا.

يقول طه حسين :((لم يرد أبو العلاء أن يظهر في كتاب اللزوميات مقدرته اللغوية وبراعته في قرض الشعر ، كما ظن طائفة من الناس، و إنما سلك هذا المسلك فيما نعتقد ليكون أدعى إلى إيثار الغريب و الاستكثار منه ، حتى تخفى أغراض الكتاب على كثير من الناس ، لم يكن يحب أن يظهروا عليه و هذا فيما نرى علة حبه للرمز و الإيماء ، و إيثار الألفاظ الجافية للمعاني الغريبة ، فمما لاشك فيه أن الرجل كان يود لو عمي أمر كتابه على الناس من المتشددين في الدين حتى لا يتخذوه وسيلة إلى إهدار دمه.)) [1]

و يقول علي شلق في معرض بيان تميز ديوان اللزوميات عن غيره من دواوين الشعر: ((يقف القارئ من ديوان اللزوميات مواقف شتى تختلف شكا وحيرة وغموضا و جلاء ، إلى رفض أو قبول لمختلف أراء أبي العلاء في لزومياته شأن المعاصرين في ذلك شأن القدماء.)) [2]

و يقول في موضع آخر: ((لعل التسمية "لزوم ما لا يلزم " التي تنصب للوهلة الأولى في ذهن القارئ لتفيد أن الشاعر أخذ نفسه بقيود شكلية في النظم و التقفيه حيث لا مجبر على ذلك، بيد أن هذه المخاطرة قشرة مسطحة، فالغاية التي رمى إليها مفلسف اللغة و مفلسف الشكل أبو العلاء ، هي فلسفة الآراء عن الوجود ، وخلاصة مواقفه من الله و الحياة و المجتمع ،وهي مواقف الرفض و التهمة و العدمية و الإيمان ، هذه الأفكار سبق إلى جوانب منها أبو العلاء ، لكنها لم تجئ ملتمّة في شكل مذهب ومواقف ، إنما كانت شذرات وخطرات))[3].

[1] ـ المرجع السابق ،ص 204

[2] ـ علي شلق أبي العلاء و الضبابية المشرقة ص 38

[3] ـ المرجع نفسه ،ص29

و إذا كان التزام مالا يلزم من جهة النظم التقفية قد عرف قبل أبي العلاء عند بعض الشعراء، فإن التزامه ببعض الآراء الفلسفية و التي دون معظمها في ديوانه لم يسبقه إليها أحد كإلزام نفسه سجن بيته ، وتحريم الحيوان و التزام النبات ، و التزام العزوبية بالابتعاد عن الزواج و رفض النسل و اعتزال الناس، و غيرها من الآراء الفلسفية التي مثلت شخصية أبي العلاء .

قـائـمـة الـمـصـادر والـمـراجـع :

1 – إبراهيم عبد العزيز السيمري ، اتجاهات النقد الأدبي العربي في القرن العشرين ،دار الأفاق العربية ، القاهرة ،ط1 ، 2011.

2 – أحمد تيمور باشا ، أبو العلاء المعري ، كلمات عربية للترجمة و النشر ، مصر ، د ط ، دت.

3– جابر عصفور المرايا المتجاورة (دراسة في نقد طه حسين)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د ط ، 1983.

4–حمدي السكوت ومارسدن جونز ،أعلام الأدب المعاصر في مصر ، قسم النشر بالجامعة الأمريكية ، القاهرة ، ط2، 1982.

5–حنا الفاخوري ، الجامع في تاريخ الادب العربي ، دار الجبل ،بيروت لبنان ، الطبعة الاولى،1986.

6– خليل شرف الدين ، ابو العلاء المعري مبصر بين عميان ، دار مكتبة الهلال ، بيروت لبنان، د ط ، 1995.

7– شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الثانية ، 1975.

8– شوقي ضيف ، محاضرات مجمعية،الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، مصر ،ط1،1998.

9– طه حسين ، تجديد ذكرى أبي العلاء ، دار المعارف ، مصر ، ط 6 ، 1963م.

10– طه حسين ،حديث الأربعاء ، دار المعارف ،الطبعة الرابعة عشر،د ط ، د ت.

11– ع العزيز الميمني ، ابو العلاى وما اليه ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، د ط ، د ت .

12– عائشة عبد الرحمان، مع ابي العلاء المعري في رحلة حياته ، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان ، الطبعة الاولى ، 1972م.

13– عباس محمود العقاد، رجعة أبي العلاء،دار الكتاب العربي ، بيروت ،1967.

14– علي الشلق ، ابو العلاء و الضبابية المشرقة ، المؤسسة الجامعية للدراسات و التوزيع،ط1، 1981.

15– عمر فروخ ، حكيم المعرة ،دار لبنان ، بيروت لبنان ، د ط ، د ت.

16– كارلو نالليو، تاريخ الأدب العربية ،تقديم طه حسين ،دار المعارف ، مصر ،ط2،د ت.

17– كمال اليازجي ، جولة في لزوميات المعري ، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1942.

18- مجموعة من الباحثين ، المهرجان الالفي لابي العلاء المعري ، دار الصادر ، بيروت ،ب ط، ب ت، مقال لسامي الكيلالي.
19- محمود أمين العالم،مواقف نقدية من التراث،دارا لقضايا الفكرية للنشر والتوزيع،القاهرة،د ط ، د ت.

فهرس المحتويات

المقدمة :	أ
الفصل الأول : أبو العلاء البيئة و الشخصية	
I فترة أبي العلاء (البيئة و الثقافة)	4
1-البيئة	04
2-الثقافة	09
II مكونات الشخصية : الانفرادية / التميز	13
1-المكونات النفسية	13
أ - التشاؤم	13
ب - محنة العمى	15
ج - موت الأم	16
2-المكونات الفكرية	17
أ- إتباع العقل	17
ب - النظرة الواقعية	19
ج- التقية الفكرية	20
د-التفكير العلمي	21
III إنتاجه الأدبي (الإبداع / الانزياح)	22
1- سقط الزند	22
تميز سقط الزند	23
2- رسالة الغفران :	24
موضوع الرسالة	25
مميزات الرسالة	26
بعض ما قيل في رسالة الغفران	27
3 - اللزوميات	27
تميز اللزوميات	28
الفصل الثاني : قراءات نقدية لدراسات حديثة حول أبي العلاء	31

I قراءة نقدية في كتاب "تجديد ذكرى أبي العلاء"	32
1 – التعريف بالكتاب	32
2 – منهجه في الكتاب	33
3 – الجانب الإجرائي للمنهج التاريخي	39
أ – أثر العصر (الزمن) في أبي العلاء:	39
ب – أثر البيئة في أبي العلاء:	41
ج – جنس أبي العلاء:	42
4 – قضية الفصل بين الضعف السياسي و الانحطاط الأدبي:	44
5 – بصمات من النقد التقليدي	45
6 – الاتحاد الوجداني بين الناقد و الشاعر	46
II قراءة نقدية في كتاب "مبصر بين عميان"	49
1 – التعريف بالكتاب	49
2 – أهم القضايا النقدية في الكتاب	50
3– تميّز شاعريّة أبي العلاء:	50
4 – الحداثة في شعر أبي العلاء	51
5 – أسلوبه الأدبي	52
III قراءة نقدية في كتاب "رجعة أبي العلاء	55
الخاتمة	61
فهرس المحتويات	63

ملخص :

تناولنا في هذه المذكرة حضور شخصية أبي العلاء المعري في النقد الأدبي الحديث من خلال ثلاث كتب هم : " تجديد ذكره أبي علاء " لدكتور طه حسين ، و " مبصر بين عميان " للأستاذ خليل شرف الدين ، و " رجعة أبي علاء " لعباس محمود العقاد وتجد في الفصل الأول من هذه المذكرة أثر البيئة السياسية والثقافية في شخصية أبي العلاء كما سلطنا الضوء على أهم مميزات الشخصية العلائية من خلال مكوناتها النفسية والفكرية ومن خلال تميز إنتاجه الأدبي.

قيل أن تنتقل في الفصل الثاني إلى التركيز على أهم القضايا النقدية في كتاب " تجديد ذكرى أبي العلاء " و التي يمكن تلخيصها في ثلاث نقاط :

- المنهج التاريخي في جانبه الإجرائي في " تجديد ذكرى أبي العلاء "
- الاتحاد الوجداني بين الناقد و الأديب
- الفصل بين الانهيار السياسي و الرقي الثقافي

و أما عن كتاب " مبصر بين عميان " فكان البحث حول تلخيص أهم المباحث النقدية التي تلخص شعر و أدب أبي العلاء و ذلك من خلال :

- البحث عن الحداثة في شعر أبي العلاء
- تميز شاعرية آبي العلاء
- الأسلوب الأدبي العلائي

و في المبحث الثالث من الفصل الثاني وضعنا ملخصا لكتاب " رجعه أبي العلاء " و الذي هو عبارة عن رجلة خيالية و سياحية وفكرية للعقاد مع أبي علاء على طريقة رسالة الغفران و الذي حاول من خلالها الكاتب استنطاق أهم الآراء و الأفكار الفلسفية لأبي العلاء المعري .

قراءة نقدية في كتاب "تجديد ذكرى أبي العلاء"

التعريف بالكتاب :

" تجديد ذكرى أبي العلاء " هو كتاب حاول فيه " طه حسين "أن يعرض فيه عرضا شاملا لحياة أبي العلاء المعرى من جهة شخصيته ونسبه وعصره ومن جهة شعره ونثره و عقيدته و فلسفته ، وكان الكتاب في أول أمره عبارة عن رسالة تقدم بها "طه حسين" إلى الجامعة المصرية ليحصل بها على درجة الدكتورة يقول " طه حسين " : ((وضعت هذا الكتاب و قدّمته إلى الجامعة وكان امتحانه بين يدي الجمهور))[1].

ثم أذن" طه حسين" بعد ذلك بنشره لسببين اثنين ذكرهما في مقدمة الكتاب : الأول : ((أنه يمثل طورا من أطوار حياتي العقلية و أنا رجل شديد الأثرة أحب أن أكون واضحا لمعاصري ، و لمن يحيوّن على أثر من الناس وضوحا تاما في جميع ما اختلف على نفسي من الأطوار، وهذا الكتاب يمثل حياتي العقلية في الخامسة و العشرين ..، وإما السبب الثاني : أن هذا الكتاب – و لا أريد فخر أو حرصا على تمدح – يؤرخ للّحركة الأدبية في مصر فإنّي لا أعرف قبل اليوم كتاب ظهر على هذا النحو من البحث))[2].

و يرجع طه حسين أسباب اختياره لشخصية أبي العلاء للدّراسة تأثره بالمنهج الجديد الذي عرّفه به المستشرقون حيث يقول((و المذهب الذي أحدثته الجامعة في درس الآداب العربية بمصر نافع النّفع كلّه لاستخراج نوع من العلم لم يكن لنا به عهد)) [3] ، ويقول : ((كرّه المنهج القديم إليّ أبا العلاء و أزال المنهج الجديد من نفسي هذا الكره))[4] .

1- طه حسين ، تجديد ذكرى أبي العلاء ، ص 1 .
2- المرجع نفسه ، ص 12 .
3 - المرجع نفسه ، ص 7 .
4 - المرجع نفسه ، ص 9 .

ومن جهة ثانية فإن دراسة الإفرنج لشخصية أبي العلاء و عنايتهم بالرّجل و ترجمتهم للزوميات و الرسالة الغفران ، وإكثارهم القول في فلسفته و نبوغه من الأسباب التي دفعت" طه حسين" لدراسة واختيار شخصية أبي العلاء للّبحث

و يذكر" طه حسين" كذلك من الأسباب تلك المصيبة التي جمعت بينه وبين أبي العلاء ، وهي مصيبة العمى حيث يقول ((و رأيت بيني و بين الرجل تشابها في هذه الآفة المحتومة)) [1].

و ذكر محمود أمين العالم سببا آخر لاختيار طه حسين لأبي العلاء في دراسته حين سئل عن سر علاقة " طه حسين " ب " أبي العلاء " ((ألست ترى أنّ السّبب هو فقدان كليهما البصر ؟ فأجاب "العالم "بأنّ ذلك ما هو إلا تماثل ظاهري سطحي قد يكون له أثره و دلالته بغير شكّ، على أن الحقيقة الأعمق التي تجمع بينهما ، تتمثل في قول أبي العلاء : " لا إمام سوى العقل "[2].

منهجه في الكتاب :

يقول " طه حسين " ((كرّه المنهج القديم إليّ أبا العلاء ،و أزال المنهج الجديد من نفسي هذا الكره، ووقفي من بعض الشّعراء المحدثين و المتقدمين موقف الرّجل الحرّ ، لا يستهويه حب ، ولا يصرفه بعض ، و إنّما المجيد و المسيء عنده سواء في الخضوع لقوانين البحث)) [3] .

و لنا أن نتساءل في هذا المقام ، ما هو هذا المنهج الجديد الذي حبب لطه حسين دراسة شخصية أبي العلاء ؟ و عمن أخذ هذا المنهج و ما هي مميزات هذا المنهج الجديد ؟ وما هي أهم الأدوات الإجرائية التي أخذ بها طه حسين في دراسته لشخصية أبي العلاء ؟ .

يكاد يجمع النقاد على أن المقصد بالمنهج الجديد في تلك العبارة" لطه حسين" هو المنهج التاريخي ، الذي ظهر في أوربا في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، على يد النّاقد الفرنسي

---

1 - المرجع السابق ، ص 10 .
2 - محمود أمين العالم ، مواقف نقدية من التراث ،دار القضايا الفكرية للنشر و التوزيع ، القاهرة ، د ط، و ت ، ص 239 .
3 - طه حسين ، تجديد ذكرى أبي العلاء ، ص 9 .

الكبير " سانت بوف 1804-1868" الذي (((رأى أن يربط النقد بالعلوم الطبيعية الجديدة حيث يتحرر الناقد من مسألة الذوق الاعتباطي ، ويصير مضبوطا بقواعد منهجية علمية)) [1].

قبل أن تتبين معالم هذا المنهج على يد تلميذه " هيبولين تين (1828-1893) و الذي جاء بالثلاثية المشهورة ' الجنس' و 'البيئة 'و 'العصر' و في أوائل القرن العشرين أسّس واكتملت قواعد هذا المنهج على يد الناقد "جوستاف لانسون " (1852- 1936) في كتابه ' منهج البحث في الأدب ' .

((شرع " طه حسين " ببحث عن منهج يتفق مع دراسته الحديثة و يعينه على فهم الأعمال الأدبية فهما لا يقل حظا من الوضوح على مثيله في الأدب الغربي ، فكان هذا الاتجاه الجديد الذي تبناه "طه حسين" وراح يدعو إليه بكل ما أوتي من قدرة على التعبير هو المنهج التاريخي))[2].

((و لسنا مغالين إذا زعمنا أن طه حسين أول من وضع هذا المنهج في صورته المختلطة من مبادئ " بوف" و قواعد "تين" موضع التطبيق في دراسته للأدب العربي القديم خاصة والحديث عامة))[3].

ولم تكن مقاربة " طه حسين " للمنهج التاريخي وليدة الصدفة ، وإنما انبنت عمّا أفاده من أساتذته في الجامعة المصرية ، وعلى وجه الخصوص أستاذه المستشرق الايطالي " ناللينو" ،فهو و لأول مرة يعرف ((أنّ الشّعر العربي لا يختلف باختلاف فنونه التقليدية مدحا ورثا ، ووصفا و هجاء و نسيبا و تشبيبا فحسب ، و إنما يختلف باختلاف موضوعاته التي قيل

---

1 - إبراهيم عبد العزيز السيمري ، اتجاهات النقد الأدبي العربي في القرن العشرين ،دار الأفاق العربية ، القاهرة ،ط1 ، 2011،ص18 .
2- المرجع نفسه ، ص 31 .
3 - المرجع نفسه ، ص 31 .

فيها و ظروفه التي أحاطت به حين قيل و المؤثرات المختلفة التي أثرت في قائلته و في سامعيه أيضا .))[1] .

و كذا ما خلفته السياسة ((من آثار دقيقة عميقة في نشأة فنون المختلفة من الشّعر العربي في العصر الإسلامي أيام الخلفاء الراشدين و أيام بني أمية)) [2].

و لأول مرة يعرف طه حسين ((أنه من الممكن أن ندرس الأدب العربي على أساس من الموازنة بينه و بين الآداب القديمة الكبرى و أن الحياة الإنسانية تتشابه و تتقارب مهما تختلف ظروفها))[3] .

ومنه تعلّم ((أنّ الأدب مرآة لحياة العصر الذي ينتج فيه لأنّه إمّا أن يكون صدى من أصدائها ، وإمّا أن يكون دافعا من دوافعها، فهو متّصل بها على كل حال ،وهو مصور لها على كل حال ،و لا سبيل إلى درسه وفقهه إلا إذا درس الحياة التي سبقته فأثرت في إنشائه ، والتي عارضته فتأثرت به و أثرت فيه)) [4].

بل عرف وفهم أنّ للأدب ((مظهران ... مظهر فردي لأنّه يستطيع أن يبرأ من الصلة بينه وبين الأدب الذي أنتجه ، ومظهر اجتماعي لأن هذا الأديب نفسه ليس إلا فردا من الجماعة فحياته لا تتصور و لا تُتصور و لا تُفهم و لا تُحقق إلاّ على أنّه متأثر بالجماعة التي يعيش فيها، وهو في نفسه ظاهرة اجتماعية فلا يمكن أن يكون أدبه إلا ظاهرة اجتماعية)) [5] .

ومن خلال هذه النظرة الجديدة في البحث عمد " طه حسين " إلى تصوير شخصية أبي العلاء تصويرا صحيحا و حتى يتحقق له ذلك كان عليه أن يعتمد منهجا علميا غير مألوف في الدراسات العربية ، و في ذلك يقول :((إنّ هذا الكتاب يؤرخ للّحركة الأدبية في مصر فإني لا أعرف قبل اليوم كتابا ظهرا على هذا النحو من البحث ، وربما لا أغلو إن قلت : إنّي لا أعرف

---

1 - طه حسين "مقدمة" كارلو نالينو تاريخ الأدب العربية تقديم طه حسين ، دار المعارف ، مصر، ط2، د ت ، ص 9.
2 - المرجع نفسه ، ص 9 .
3 - المرجع نفسه ، ص 10 .
4 - المرجع نفسه ، ص 10 .
5 - المرجع نفسه ، ص 10 .

كتابا في الآداب العربية قد وضعه صاحبه على قاعدة معروفة و خطة مرسومة من القواعد و الخطط التي يتخذها علماء أوربا أساسا لما يكتبون في تاريخ الآداب))[1].

و تلك الخطة المرسومة التي عناه "طه حسين " في مقدمة كتابه تتطابق تقريبا مع ما نادى به الناقد الفرنسي " تين " يقول "طه حسين " في ((حديث الأربعاء)) في مقالا نشر أولا بالسياسة بتاريخ 31 يناير 1923 : ((ثم سل تين ينبئك بأن شخص الشاعر أو الكاتب ومزاجه و عواطفه وكل ما يكوّن نفسه لا يعنيه إلا من حيث هو أثر من أثار العصر الذي عاش فيه ، و البيئة التي خضع لها ،و الأمة التي نجم منها ، فالشّخص عنده أثر من أثار هذا العصر ، و هذه البيئة ، وهذه الأمة))[2].

فإذا قارنا بين ما نقله طه حسين عن " تين " و بين ما ذكره هو نفسه في مقدمة " تجديد ذكرى أبي العلاء " حيث يقول : ((فلم يكن لحكيم المعرة أن ينفرد بإظهار آثاره المادية أو المعنوية ، و إنما الرّجل و ماله من آثار و أطوار نتيجة لازمة ، و ثمره ناضجة لطائفة من العلل اشتركت في تأليف مزاجه و تصوير نفسه من غير أن يكون له عليها سيطرة أو سلطان))[3].

و بعد أن يشرح حقيقة هذه " الأسباب و العلل "والتي يرجع بعضها إلى طبيعة الإقليم الذي عاش و ترعرع فيه ، وبعضها إلى أحوال المجتمع يقول: ((و إذا صح هذا كلّه فأبو العلاء ثمرة من ثمرات عصره ،قد عمل في إنضاجها الزّمان و المكان و الحال الاقتصادية ،و لسنا نحتاج إلى ذكر الدّين فإنّه أظهر أثر من أن نشير إليه))[4] . ثم يخرج بعد ذلك بنتيجة حتمية وهي أن المؤرخ ((ملزم مع ذلك أن يبحث عن حياة الأمّة الإسلامية ، إذا أراد البحث عن حياة أبي العلاء، فإنه إن لم يفعل ذلك استحال عليه أن يفهم الرّجل، أو يهتدي من أمره إلى شيء))[5].

---

1 - طه حسين ، تجديد ذكرى أبي العلاء ، ص 12 .
2 - طه حسين ، حديث الأربعاء ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة عشر ،د ت ، د ط ، ج ع ، ص 53 .
3 - طه حسين ،تجديد ذكرى أبي العلاء ، ص 15.
4 - المرجع نفسه ، ص 16.
5 - المرجع نفسه ، ص 17 .

وواضح من هذه النّصوص أنّ" طه حسين" يرى أنّ أبا العلاء أثر من آثار هذا العصر ، وهذه البيئة ، وهذه الأمة ، وهو نفسه رأي تين ، ((ومع أن آراء "تين" هذه كانت قد أصبحت متخلفة حين كتب طه حسين رسالته ، فإنها قد أكسبت الكتاب– ولا شك –كثيرا من التعمق والأصالة ، وأشاعت فيه ألوانا من التحليل الكاشف ، وتعليل المقنع وذلك من خلال محاولات المؤلف اكتناه العلاقة بين الجوانب المختلفة للبيئة والعصر ، وبين حياة أبي العلاء ، ولا شكّ أنّ هذا الأسلوب في البحث كان جديدا على القارئ العربي)).

وقد أشكل على كثير من الباحثين ((استشعار طه حسين لهذه الجبرية وتساءلوا هل اطلع على آراء "تين" النّاقد الفرنسي وما ذهب إليه من جبرية التّاريخ الأدبي،وجبرية علله المؤثرة في سماته وخصائصه ، ولا موضع لهذا التساؤل فقد أعفانا هو نفسه من تعليل ذلك بما ذكر من أنه يتبع فيه فلاسفة أوربا والمسلمين))[1] .

وبذلك يبين طه حسين منهجه في دراسة تاريخ الأدب العربي ((فهو ليس سردا للأخبار من هنا وهناك عن العصر وأدبائه ، بل هو دراسة جادة للأدب وأدبائه ، وللّعوامل والمؤثرات الحتمية التي تتحكم فيه وفي منتجيه ، وما ينتجون من آثار أدبية))[2].

حتى إنّه ليقول : ((إنما الحادثة التاريخية والقصيدة الشّعرية ، والخطبة يجيدها الخطيب ، والرّسالة يتقنها الكاتب الأديب ، كل أولئك نسيج من العلل الاجتماعية والكونية ، يخضع للبحث والتحليل ، خضوع المادة لعمل الكيمياء))[3].

((وقد يكون طه حسين مسرفا في تصور هذه الجبرية التي تشمل جميع الأدباء في العصر دون أي تفريق بين أديب وأديب ،و دون أيّ مراعاة لفردية الأديب ومواهبه الذّاتية، غير أنّه كان من الضروري وهو يضع – لأول مرة – قواعد التاريخ للأدب العربي وأدبائه أن يقرع أسماع من يحاولون التصدي لدراسة هذا التاريخ بأنّ واجبهم أن يعكفوا على دراسة المؤثرات البيئية والسياسية

1- شوقي ضيف : محاضرات مجمعية ،الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، ط1 ، 1998 ، ص 196.
2 - المرجع نفسه ، ص 192 .
3 - طه حسين ،تجديد ذكرى أبي العلاء ، ص 19.

والاجتماعية والعقلية والحضارية في العصر ، وفي أدبائه ، وما أنتجوا من شعر ونثر ، ويوضحها توضيحا تاما ، ومن الخير ألا يعطوها صفة الحتم والجبر والإلزام ، ولكن لابد من استقصائها حتى تستبين سمات الأدب في العصر والعوامل التي تتفاعل معها استبانه كاملة))[1].

1- شوقي ضيف : محاضرات مجمعة ،ص 196 .

الجانب الإجرائي للمنهج التاريخي

قد بيّنا في مبحث سابق أنّ "طه حسين اعتمد في بحثه على المنّهج التّاريخي و سنحاول في هذا المبحث أن نبيّنا أهم الأدوات الإجرائية الّتي اعتمدها في هذه الدّراسة .

أثر العصر (الزمن) في أبي العلاء:

لمّا كان قصد" طه حسين" في تأليفه للكتاب هو فهم أبي العلاء فهما صحيحا أخبرنا بأنّه لن يكتفي بدراسة "حياة أبي العلاء" ،وإنّما سيتجاوز ذلك لدراسة "حياة النّفس الإسلامية " بل ودراسة "حياة الأمّة العربية" ، ذلك لأنّه ينظر على أنّ للعصر(الزمان) تأثيرا جبريّا على شخصية أبي العلاء[1]، و يرى" طه حسين "أن ((حال الأمّة العربية في عصر أبي العلاء أكثر تأثيرا من الأمة الإسلامية، ذلك ((إنّ أبا العلاء كان عربيا ، و عاش عيشة عربية ، و اظهر آثاره الأدبية باللّغة العربية، فإذا أراد أن يستقصي أمره ، كان خليقا أن يبحث عن حال الأمّة العربية في عصره لا عن حال الأمّة الإسلامية ...ربما كانت الأمّة العربية أشد الأمم تأثيرا في تكوين المزاج النّفسي لأبي العلاء ،فإنّ الرّجل قد أنفق حياته في درس الأدب العربي ، و التّعمق فيه حتّى استحال أو كاد يستحيل إلى كتّلة عربية خالصة)).[2]

و لكي يثبت "طه حسين" أنّ أبا العلاء هو ثمرة من ثمرات هذا العصر ، نجده يستقصي – وبشكل مطول – الحياة السّياسية ،و الاقتصادية ، و الدّينية ، و الخلقية ،و العقلية للفترة الّتي عاش فيها أبو العلاء .

بل ونجد أنّ "طه حسين" يقسم عصر أبي العلاء تقسيما أدبيا خلافا لما كان شائعا في كتب التّاريخ الأدبي من تقسيم العصور تقسيما سياسيا ، فيقول: ((فابتداء العصر العبّاسي الأدبي، إنما هو ابتداء القرن الثاني للهجرة ، وقد مضى أكثر هذا القرن في إعداد و تمهيد للظهور

---

[1]- ينظر : طه حسين ،تجديد ذكرى أبي العلاء ، ص17 .

[2] - المرجع نفسه ، ص17 .

الصّورة الجديدة الجليّة للأدب ظهورا تاما في أيام الرّشيد ، و المأمون ، و المعتصم ، والواثق ، و المتوكل)).[1]

و يقول في موضع آخر: ((فأيام بني العبّاس ، أو بعبارة أقرب إلى التحقيق ، أيام الآداب العبّاسية تنقسم إلى ثلاث عصور ، يبدأ أوّلها مع القرن الثّاني وينتهي بعد منتصف القرن الثّالث ، ثم ينتهي العصر الثاني ويبدأ العصر الثالث بعد منتصف القرن الخامس))[2] .

أمّا أبو العلاء فقد ((أظلته بمعرة النّعمان دول ثلاث ، وهي الحمدانية ،و الفاطمية ، و المرداسية)) [3] .

ثم يبّن" طه حسين" حال هذه الدّول و ما وقع بينها من اضطرابات سياسية و أنّها لم تعرف الاستقرار ثم ربط ذلك كلّه بأبي العلاء فيقول :" لقد أطلنا الاطالة كلها في تفصيل الحياة السياسية ...أيام أبي العلاء ...و لكنّا إن فعلنا ذلك فانما نحن ملجئون إليه ، لا نجد منه بدّا و لا عنه منصرفا ، فإنّ هذه الحياة السّياسية المملوءة بالفزع و الهول ، و بالاختلاف ، و بالاضطراب ،و بالفساد و ...،و بالكيد و الخديعة ،قد عملت –من غير شك– عملا غير قليل في تكوين الفلسفة العلائية ،فلابد من فهمها إذا حاولنا أنّ نفهم أبا العلاء)) [4].

و يقول في موضع آخر ((إذا عرفنا الحياة السّياسية السّيئة و غيرها من الأسباب التي اشتركت في تكوين هذا النسيج الفلسفي التي تمثّله اللزوميات ،لم يبقى ما يحمل على لوم أبي العلاء أو تأنيبه ، فإنّ كلّ شيء حوله إنّما كان يزهّد العاقل في الحياة ، و يرغّبه عنها ، و يملأ نفسه سوء ظنّ بها و قبيح الرّأي فيها)) [5].

---

1 ـ المرجع السابق ، ص40 .

2 ـ المرجع نفسه ، ص 42 .

3 ـ المرجع نفسه ، ص 63 .

4 ـ المرجع نفسه ، ص 64 .

5ـ المرجع نفسه ، ص 65 .

فهنا نجد" طه حسين" يبرّر التّشاؤم الّذي عُرف عن أبي العلاء بأنّه كان نتيجة حتمية ليس لأبي العلاء معها خيار.

ثم ينتقل بنا "طه حسين " إلى الحالة الاقتصادية في زمن أبي العلاء ، و يرى فيها أنّ سوء الأحوال السّياسية كان يلزم منها سوء الحياة الاقتصادية ، و أنّ تلك الحياة الاقتصادية السّيئة – و الّتي ذكر لها أمثلة كثيرة– قسّمت الأمّة إلى طبقتين متمايزتين لا توسط بينهما ، و هي الحال الّتي ((قد مسّ ضرّها أبا العلاء ، فكوّن له في تقسيم الثّروة رأيا خاصا)) [1] حتّى ((تمنى أن يشترك النّاس في النعمة كما اشتركوا في البؤس))[2] .

أمّا الحياة الدّينية في عصر أبي العلاء لم تكن أفضل حال من الحياة السّياسية و الاقتصادية ، فالّذين عايشوا أبا العلاء لم يعرفوا من((الدّين إلا اسمه و مراسمه الظّاهرة ، ولم يتّخذوه إلّا لونا يميّز شخصيتهم ووسيلة تمكّنهم من اكتساب الحياة ...تلك الحياة الدّينية في نفوس المسلمين أيام أبي العلاء، فإذا لم نفهمها كذلك فلن نستطيع أن نفهم التاريخ)) [3].

و يعتبر " طه حسين "أن التّدين المزيف وتزيف الدّين هو السّبب الرّئيسي في مقت أبي العلاء لعصره ، و حياته وسخطه على أمته [4].

ثم نجده يذكر بعد ذلك فساد الحياة الاجتماعية و الخلقية ، ويعتبر أنّ ذلك الفساد الخلقي و الاجتماعي أثّر في نفسيّة أبي العلاء آثارا ،و كونت له في الاجتماع و الأخلاق آراء خاصة [5].

و يختم "طه حسين " المقالة الأولى من الكتاب بقوله : ((ها نحن أولاء قد فصّلنا القول في عصر أبي العلاء تفصيلا تاما ، فأحطنا بأطرافه ، و ألممنا بما كان فيه من خير و شرّ ومن حسن و قبيح، فإن نكن قد وفقنا لذلك فقد سهل علينا بعد هذه الصورة أنّ نفهم أبا العلاء)) [6].

1_ المرجع السابق ، ص 68 .

2 _ المرجع نفسه ، ص 285 .

3_ المرجع نفسه ، ص 69 .

4- ينظر : المرجع نفسه ، ص 61 .

5 _ المرجع نفسه ، ص 75 .

6 _ المرجع نفسه ، ص 95.

أثر البيئة في أبي العلاء:

وبعد أن فرغ" طه حسين" من بيان أثر الزّمن و العصر في أبي العلاء ،انتقل للبحث عن الوسط و البيئة الّتي عاش فيها حكيم المعرة ، وما مدى تأثره بها ، فبدأ حديثه عن مدينته "المعرة " فأطال الكلام في تحقيق معنى لفظ (المعرة)، ونسبه إلى النّعمان ، ثم بيّن موقعها الجغرافي في البلاد الشّامية، ثم تناول بالدّرس قبيلته "قضاعة" فحاول تحقيق اسمها ونسبها ، ومعرفة ما مرّت به من حوادث، ويعترف " طه حسين" أثناء ذلك بقلة الوثائق التّاريخية المعينة على ذلك ، إلّا أنّ الغريب في ذلك كلّه أنّنا لا نكاد نجد لطه حسين بيانا واضحا لتأثير تلك البيئة– التي أطال النفس في وصفها– على شخصية أبي العلاء.

جنس أبي العلاء:

وعندما يتناول "طه حسين" حياة أبي العلاء، فهو إنّما كان يريد من ذلك البحث عن جنسه ، فنجده يحدّثنا مطولا عن مولده واسمه ولقبه وكنيته وذهاب بصره وموت أبيه وأمّه وأخلاقه وأسفاره لطلب العلم [1].

فهو من خلال ذلك يسعى إلى البحث عن جنس أبي العلاء وعن مكونات الشّخصية العلائية، كيف نشأت ، وكيف نسجتها مختلف الظروف ، وكيف تفاعل هو مع ذلك ، فنجد" طه حسين" في هذه المقالة يسعى ما أمكنه ذلك إلى تبرير ما يصدر عن أبي العلاء من آراء ومن حزن ومن زهد ومن عزّة نفس ،ومن ذلك قوله:((دهمته هذه الدّاهمة–وهي فقد البصر– وهو صبي لا يعقل ... فلم يستطع حين شبّ أن يتذكر ما رأى من الألوان، ولم يبق في ذاكرته منها إلّا الحمرة...، فكان اشتداد المرض عليه و تأثيره فيه من الأسباب التي نقشت هذه المصيبة في نفسه نقشا لا يزول...و أثر هذه المصيبة من الحزن عظيم، يلزم صاحبه في جميع أطوار حياته)) [2].

ونجده حين يتحدث عن أسرة أبي العلاء تلك الأسرة التي أنجبت هذا الحكيم فيصف أفرادها بطائفة من النابهين، أسرة كان لها في المجد العلمي طارف وتليد، فليس من الغريب أن تنجب هذه

---

[1] - ينظر : طه حسين ،تجديد ذكرى أبي العلاء ، ص168 – 178 .

[2] - المرجع نفسه ، ص 113 .

الأسرة رجلا غير عادي مثل"أبي العلاء" ثم يؤكّد "طه حسين" ذلك في قوله ((ومن الواضح أن طريف ما لهذه الأسرة من المجد إذا انضم إلى تليدها قوي في نفس الذّكي النّابغة من أبنائها أخلاقا ستظهر في أبي العلاء)) [1].

بل ويبرر" طه حسين" حبّ العزّلة عند أبي العلاء بطبيعة النّفس العلائية الّتي و جدت معه منذ ولادته ، فيقول ((و الظّاهر أنّ في طبيعة أبي العلاء شيئا من حبّ العزلة ، عرفه أبو العلاء في نفسه ، فقال في رسالة إلى خاله أبي القاسم:"إنه وحشي العريزة أنس الولادة")).

بل نجده يردّ كثيرا من أخلاق أبي العلاء وعزّة نفسه إلى الوراثة فيقول :((فأول ما يظهره من الخصائص الخلقية لأبي العلاء زهده و إعراضه عمّا في هذه الحياة من اللذات، ولك في سيرته بالمعرّة تسعا و أربعين سنة أصدق دليل على أنّ هذا الخُلق قد كان من الصّور النّفسية اللّازمة له، و كذلك العفة و القناعة وعزة النفس ، وحسبك أنّه قضى حياته أو شطرا عظيما منها مقلّا من المال مكثرا من الأدب و العلم، فلم يكتسب بالشعر ولم يكلف نفسه مذلة السؤال، وما اضطرابه بين العراق و الشام و احتجابه في منزله إلى أن مات إلاّ أثر من آثار هذه العزّة الّتي أوجدتها الوراثة)) [2].

---

1 - المرجع السابق ، ص 107 .

2 - المرجع نفسه ، ص 169 .

قضية الفصل بين الضعف السياسي و الانحطاط الأدبي :

و إلى جانب المنهج التاريخي الذي كان يعد منهج جديد في وقته، فإنّ هناك بعض القضايا النّقدية الّتي أشاعها "طه حسين "في كتابه، (وقدّمها للقارئ العربي–ربمّا لأول مرة– فأعجب بها كلّ الإعجاب وأصبحت تذكر في كتب الدراسات الأدبية كقضايا مسلمة... ، ومنها فكرة الفصل بين الضّعف السّياسي و الانحطاط الأدبي،فتسمية العصر الثاني للأدب العباسي بعصر الانحطاط ،تعد–في نظر طه حسين– جناية لا تعدلها جناية ((ولو أنصفو لسمّوا جزءا غير قليل من هذا العصر عصر الرّقي و النّهضة لا عصر الانحطاط و الجمود)) [1].

ويرى" طه حسين " أنّ القاعدة التي بنا عليها مؤرخو الآداب هذا الحكم الجائر هي قياس الرقي و الانحطاط بما للخلفاء من قوة وضعف وما لسلطانهم من انبساط و قوة[2] .

فالمبالغة فيما بين الأدب و السياسة من صلة ، وجحد المؤثرات الاجتماعية و الاقتصادية في الآداب ، بحيث لا تكون الآداب خاضعة إلا للسّياسة ، كأن الأدب ظلّ من ظلال الخلفاء ، يتأثر بكلّ ما تأثروا به ويذعن لكلّ ما أذعنوا له وبناله ما ينالهم من الحياة و الموت.... فإنّ هذه القاعدة التي اتّبعها المؤرخون السياسيون فأصابوا وتوخاها مؤرخو الآداب فأخطأوا ، قد كانت من أقوى المؤثرات في رقي الآداب لا في انحطاطها كما زعموا [3].

فانقسام الدولة الإسلامية الكبرى إلى دويلات كان ذلك مصدر لرقي الآداب بسبب تنافس الأطراف الحاكمة، فلم يتنافس المسيطرون في الملك وحده، بل تنافسوا في العلم و الأدب أيضا [4].

---

1 _ طه حسين ،تجديد ذكرى أبي العلاء ، ص 37 .

2 - ينظر : المرجع نفسه ، ص 37 .

3 _ المرجع نفسه ، ص 37 .

4 _ المرجع نفسه ، ص 38 .

بصمات من النقد التقليدي:

إذا كان اعتماد طه حسين في استقصاء شخصية أبي العلاء على المنهج العلمي الحديث الذي ارتضاه في بحثه، فإنّنا نجد كثير من بصمات أستاذه "المرصفي"، المتمثلة في النقد اللغوي والبلاغي ، أو ما يسمى بالنقد التقليدي،والّذي حاول من خلاله" طه حسين " أن يبيّن مواطن الجودة أو الرداءة في شعر ونثر أبي العلاء .

ومن ذلك ما آخذ" طه حسين" به المعري فيما أسماه "بشعر الصبا" فيقول ((فأما شعره في طور الحداثة فتكثر فيه المبالغة ، ويظهر فيه التّكلف وتنقصه متانة اللفظ ورصانة الأسلوب وإتقان المعنى ولا يكاد الباحث يتوسّمه، حتّى يرى فيه سذاجة الطّفل وعبث الوليد)) [1].

ثم نجده يذكر أحد الأبيات التي قالها المعري في صغره في رثاء أبيه :

ونادبة في مسمعي كل قينة تغرد باللحن البرئ من اللحن

فيقول طه حسين معلقا على هذا البيت :

((فهذا المعنى في نفسه جميل طريف، ولكنّه في هذا البيت نيئ ،لم ينضج وقد شانه هذا الجناس المتكلف والبديع المعتمل)) [2].

ولاحظ" طه حسين "على شعر أبي العلاء في طور الشباب .((أن حظّه من التّكلف ينقص وقسطه من المتانة يزيد وتمثيله لعواطف الشاعر يصح)) [3].

وأما شعره في الطّور الأخير من حياته فكان فيه التشدّد ((في محاكاة المتقدمين من العرب، فيؤثر الألفاظ البدوية الجزلة والمعاني البدوية الفخمة ولا يتحضر في شعره إلاّ إذا اضّطر إلى ذلك)) [4].

---

1 ـ طه حسين ،تجديد ذكرى أبي العلاء ، ص 183 .

2 ـ المرجع نفسه ، ص 183 .

3 ـ المرجع نفسه ، ص 184 .

4 ـ المرجع نفسه ، ص 187 .

الاتحاد الوجداني بين الناقد و الشاعر :

((يتجلى الاتجاه الوجداني في كتاب "تجديد ذكرى أبي العلاء"في اللحظات الذاتية الخالصة من الكتاب ، عندما يتحرر النّاقد من قيود الدّرس التّاريخي و قواعده ، يحاول التّعرف على شخصية شاعره في هذه اللحظة ، بتحديد العلاقة الذّاتية بين النّاقد و الشّاعر إلى حال من التّقمص يختفي فيه الحاجز بين ذات النّاقد و موضوعها فيصبح الموضوع ذاتا و الذّات موضوعا ، و يحلّ العالم القديم للشاعر في العالم الحديث للناقد لينطق الثاني صوت الأول)) [1].

و يطلق "جابر عصفور"على هذا النوع من التوحد في النّقد ب"القص الخيالي"ويعرفه بقوله :((إنّما هي جوانب من تلك المنطقة التي تتذبذب بين الأدب و النّقد)) [2].

وهي منطقة ((يندفع إليها "طه حسين " عندما يوحد – نظرا و تطبيقا – بين الأدب و النّقد، و يؤكّد على أنّ الذّاتية هي المؤشّر الأول في النّقد)) [3].و يظهر ذلك جليا عندما يقص" طه حسين " الألم الّذي لحق بأبي العلاء من آفة فقد البصر، فنجد أن صوت أبي العلاء يختفي ((ليبرز صوت القاص الّذي يتحدث عن هذه الآفة من حيث هي مشكلة ذاتية ، يحاول القاص – أو النّاقد – استبطان مشاعره إزّاءها)) [4] على النحو التالي :

((أثر هذه المصيبة من الحزن عظيم . يلزم صاحبه في كلّ أطوار حياته، لا يفارقه و لا يعدوه.ذلك لأنّه يذكر بصره كلّما عرضت له حاجة، و كلّما ناله من النّاس خير أو شرّ، بل كلّما لقيهم في مجمع عام أو خاص ، فمازال الحزن يؤلمه و يُخزنه إلى أن يفقد الشّعور ، و تصيبه البلادة المطلقة ، و كلّما قوي فيه الحياء و الحرص على مجاراة النّاس في المحافظة على آدابهم و أوضاعهم العامة ، اشتدّ أثر هذا الحزن في نفسه ، لأنّه لن يوفّق إذا لقي المبصرين أن يكون مثلهم مهما كان فعلا ذكيا... و المكفوف إذا جالس المبصرين أعزل. و إن بزّهم بأدبه و علمه

---

[1] - جابر عصفور المرايا المتجاورة (دراسة في نقد طه حسين) الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د ط ، 1983 ، ص336 .

[2] - المرجع نفسه ، ص 333 .

[3] - المرجع نفسه ، ص 333 .

[4] - المرجع نفسه ، ص 339 .

و فاقهم في ذكائه وفطنته ، فقد يتندّرون عليه بإشارات الأيدي ، وغمزّ الألحاظ و هزّ الرّؤوس ، و هو عن كلّ ذلك غافل محجوب .فإن نمت عليهم بذلك حركة ظاهرة أو صوت مسموع . فحجّته عليهم منقطعة ،و حجّتهم عليه ناهضة ،و ليس من ذلك إلّا ألم يكتمه و حزن يخفيه ،ثم هو إن اشتدّ ذكاؤه و انفسح رجاؤه كثرت حاجته إليهم، و كثرت نعمهم عليه ،فهو عاجز عن تحصيل قوّته إلاّ بمعونتهم ،و هو عاجز عن الكتابة و التّحرير إلاّ إذا أعانوه وتطولوا عليه...مكان المكفوف في نفس زوجه و بنيه دون مكان المبصر .فإجلالهم إيّاه محدود.وطاعتهم له مقصورة على ما يتنبه إليه .ثم هو بعد ذلك كلّه، قد حرم التّمتع بلذّة يكبرها النّاس ،و جهله إيّاها يضاعف خطرها في نفسه ، فإن تعاطا صناعة الشعر أو الوصف ، فإنّ هذا الحرمان قد استتبع ضعف خياله ،و حال بينه و بين مجاراة الشّعراء و الواصفين فيما يتنافسون فيه ، إلّا أن يكون مقلّدا أو محتذيا ، ثم هو يسمع النّاس يتحدّثون عن بهجة الرّبيع ،و جمال الرّبى ، و عن اتّساق الأزهار ، و التفاف الأشجار، و عن اكتساء الأنهار الجارية ، و البحار الطّامية .ثيابا فضية أو عسجدية في الصّباح و الأصيل ، وعن أولئك الحسان الفاتنات .تورّدت خدودهن .و لمعت ثغورهن اللؤلؤية بين شفاههن العسل ، و التأمت من وجوههن و شعورهن نفذة النّهار و فحمة الليل ، و عن السّماء و أفلاكها ، و النّجوم و حركاتها... يسمع أحاديثهم عن هذا كلّه و ما أبدعوا فيه من تشبيه لا يعقله ولا يفقه كنّهه. فضلا عن أن يجاريّهم فيه أو يسبقهم إليه.ثم هو بعد هذا كلّه قاعد إن نفر النّاس لقتال أو حرب، قد يئس وطنه من نصره ، وقنط من حفاظه فلم ينط به أملا ، ولم يعقد به رجاء ، كلٌّ على النّاس في كلِّ شيء، تكِلة في حياته المادية و المعنوية ، فاليأس أحق به من الرّجاء ، والموت خير له من الحياة ، إلّا أن يكون له نافلة من فضيلة الصّبر وشدّة الأيد ، فإذا أضيف إلى هذه الآلام فساد الأخلاق، وانحطاط النّفوس وازدراء المنكوبين وأصحاب الآفات حتّى من الخاصة و أهل العلم، ثم اشتداد الفقر ونضوب موارد العيش، أنتجت هذه المصيبة من الآثار ما ستراه في حياة أبي العلاء)). [1]

---

1 ـ طه حسين ،تجديد ذكرى أبي العلاء ، ص 112-113 .

ومن السهل أن نلاحظ أن التركيز –في هذا النص– يقع على الاستبطان الذاتي للقاص ، ممّا يؤكّد أنّنا نواصل نجوى النّاقد ، وليس نجوى أبي العلاء التاريخي ، أمّا أبو العلاء التّاريخي فإنّه يتحول إلى شخص متخيل، تتطابق مأساته في لحظة القص نفسها مع مأساة النّاقد ، ويعاد تكييف المأساة الأولى على نحو يغدو كلّ استبطان لها استبطانا للمأساة الثّانية ، وبقدر ما يوحد هذا الاستبطان بين المأساتين يصل بين النّاقد والشّاعر المتخيّل، في علاقة تنطوي عل مجموعة من العناصر الدالة)) [1].

[1] - جابر عصفور المرايا المتجاورة ، ص 340 .

قراءة في كتاب "مبصر بين عميان"

التعريف بالكتاب :

"أبو العلاء المعري مبصرين عميان" هكذا جعل الأستاذ خليل شرف الدّين عنوان مؤلفه، وجعل هذا المؤلف في مائتين وثماني صفحة موزّعة على مقدمة وخمس وأربعين مقالة، بحث في مقدمة الكتاب عن تميّز عصر أبي العلاء، وتميّز أبي العلاء نفسه وسط ذلك العصر، ووصل إلى أنّ أبا العلاء كان يمثل ظاهرة طبيعية من حيث مفهوم قانون التّطور في المجتمع و الفكر، و أنّ أبا العلاء هو منتهى درجات التّطور التي بلغها العرب في العصر العبّاسي [1].

و أمّا المقالة الثّانية من الكتاب فجعله في ثماني صفحات فتكلّم فيها عن تشاؤم أبي العلاء و أسبابه، ورفض من خلال هذه المقالة ما كان شائعا من أنّ سبب تشاؤم أبي العلاء هو العمى، واحتج على ذلك بأنّ ((كثيرين ممّن فقدوا أبصارهم استبدلوها برؤيا بصائرهم... و أقبلوا على الدّنيا إقبال المبصرين، وأبدعوا في العديد من مجالات الحياة و الفكر ، و عاشوا عيشة راضية مطمئنّة....هوميروس كان أعمى ... وطه حسين كان أعمى)) [2]، بل وردّ سبب التشاؤم عند أبي العلاء إلى فساد العصر العباسي .

وأما المقالة الثالثة من الكتاب فخصّص الحديث فيها عن مفهوم الشّاعرية في العصر الحديث، وخصّص المقال الّذي بعدها حول تميّز شاعرية أبي العلاء، قبل أن ينتقل إلى مقال جديد بحث فيها عن الحداثة في شعر أبي العلاء، ثم توالت مقالات الكتاب حول حياة أبي العلاء، ومؤلفاته ورحلاته، وعن أسلوبه الأدبي، وقيمة العقل عند أبي العلاء، ونماذج من شعره، وسنحاول في المباحث القادمة أن نركز على أهم القضايا الأدبية و النّقدية التي تناولها في هذا الكتاب.

---

[1] - خليل شرف الدين ، مبصر بين عميان ، ص 09 .

[2] - المرجع نفسه ، ص 15 .

أهم القضايا النقدية في الكتاب

تميّز شاعرية أبي العلاء:

ينطلق الباحث في بحثه عن تميّز الشّاعرية عند أبي العلاء، بتحديد مفهوم الشّاعرية في العصر الحديث، فالشّاعرية الحقة ((لم تعد–اليوم–صناعة ألفاظ وصب قوالب و موسيقى خارجية تنبعث من خلال قصبات الأوزان و الحروف المجوّفة أو الجوفاء، لتحدث جرسا كلاميا مكرّرا ومسطحا))[1].

بل((الشّعر هو ذلك النّور القدسي الّذي يشعّ من الكائن الإنساني الملهم ... والشّاعرية الحقة – حتى في النثر الفني– فلذة حياة تُسكب سكبا إيقاعيا في كلام إيجابي... بل في حروف ونقاط مشعّة... وهذا ما نسميه بالقيم التعبيرية والظّلال النّفسية المحيطة بها) [2].

وأما شاعرية أبي العلاء تميّزت (بخصائص شوّهت بعضها آفة العصر: فسيفساء البلاغة الترصيعية، والتّعلق الشّديد بلعبة المجانسة و الازدواج، والتّلوينات الصّوتية المختلفة و التّباهي بالقدرة على نبش قبور الكلمات الميّتة)) [3].

ويظهر تميّز شاعرية أبي العلاء في ذلك العبث اللغوي، فهو يعبث باللغة تارة ويعبث بالشّعر تارة أخرى، فينحت ((ويخترع ويضع لروي القافية نظام خاصا... ويعترف بأنّ ذلك لزوم ما لا يلزم، على أنّ هذا العبث لم يكن صفة دائمة في اللزومات، ولا خاصيّة ملازمة لأبي العلاء في كلّ شعره فهناك قصائد تأمّليّة وأخرى ساخرة، وثالثة ناقدة متفلسفة ،يبث فيها جميعا حكمته وآراءه ومواعظه، وهو قد أحسن بذلك حين قال أنا و أبو تمام حكيمان و الشّاعر البحتري)) [4].

---

1 ـ المرجع السابق ، ص 22 .

2 ـ المرجع نفسه ، ص 23 .

3 ـ المرجع نفسه ، ص28 .

4 ـ المرجع نفسه ، ص 28 .

وكأن أبي العلاء من خلال مقولته تلك يعتبر ((الكلمة أو الفلسفة في الشعر أرفع من الشّعر أو هي تخرج به عن دائرة شاعرية البحتري المسطحة في نظره)) [1].

ويقف خليل شرف الدين بشاعرية أبي علاء إلى جانب كبار الشعراء العالميين ((لما فيه من توثب و صفاء و حرارة نفس إنساني و شطح ملحمي يراود الأسطورة و يتخطى التاريخ)) [2].

بل على يد أبي العلاء خرج الشّعر من دائرته القديمة الضّيقة : دائرة العبث و الفردية و القبلية و القدح و المدح و الارتزاق الرخيص ، ليدخل دائرة أوسع ،مداها الكون و الإنسان، حيث يتم تسجيل المواقف من القيم و الحقائق و كشف الزيف فيها بقصد التغيير ، و هذه هي الدّائرة العالمية للشّعر)) [3].

و لم يعد الشعر على يد حكيم المعرة ((وسيلة للعيش الرخيص أو الكذب المغلف أو الشتم الصبياني الأخرق ، بل أصبح وسيلة للفكر المتأمل و بوتقة يسكب فيها الوجدان الصادق ، و تعبيرا مشعا عن حقائق الوجود و الموجود و نقدا ساخرا لكل ما يشوهما)) [4].

الحداثة في شعر أبي العلاء :

في مقال بعنوان " هل من حداثة في شعر أبي العلاء ؟ " حاول الباحث البحث عن مواطن الحداثة في شعر أبي العلاء ، وقبل ذلك بيّن ما هي الحداثة باختصار فرأى أنّ الحداثة هي :

- أن يكون الشّاعر ساخرا من كل زيف وكل انحراف في التراث.
- أن ينشغل بفنه بدلا من أن ينشغل بالآخرين .
- أو هي الانفصام عن الماضي و ازدراء التراث ، شرط ألاّ يكون ذلك الانفصام كليا.

---

1 ـ المرجع السابق ، ص 29 .

2 ـ المرجع نفسه ، ص 29 .

3 ـ المرجع نفسه ، ص 31 .

4 ـ المرجع نفسه ، ص 32 .

- التمرّد على الثوابت المطلقة ، أو ما سميناه مقدمات في الفكر الفن والمجتمع ، والدين والسياسة.
- الرّوح الرومانسية العاشقة لكلّ جديد ، الباسقة على كلّ قديم ، المتعبدة في هيكل الطهارة والجمال والعقل تعبدا صوفيا صافيا لا دنس فيه ولا أثر ولا عودة .
- وهي ذلك الإحساس العميق بالقهر الكوني و مأسوية الوجود [1].

ثم بين أن الحداثة عند المعري تكمن في :

- الموقف المبدئي الرّافض لكلّ الأعراف ، والعلائق البشرية ، وهو موقف يسلخه عن عصره ليقذف به إلى العصور الحديثة : عصر التأمل والضياع والرفض .
- امتياز شعره بالصدق والعفوية وتوتر الصورة وضبابية الألوان الصادرة عن إنسان أعمى لكنه مبصر ... وهنا تكمن مأساوية وجوده التي عبر عنها بشعره ، مجسدا إحساس الشاعر بالغربة والضياع والعزلة القصرية التي جاهد كثير ليحدّ من قصريتها وقسوتها باستقباله للمعجبين والدعاة والطّلاب .
- ابتعاده عن كلّ ما يزري بكرامة الشّاعر ، ودخوله مملكة العقل والاجتهاد به ، وريادته لآفاق وموضوعات شعرية لم يتطلع إليها خيال شاعر من شعراء عصره ، كما في رسالة الغفران [2].

---

[1] - ينظر : المرجع السابق ، ص 39 .

[2] - المرجع نفسه ، ص 39- 40 ن بتصرف .

أسلوبه الأدبي

في مقال بعنوان " أسلوبه الأدبي " جعله في سبعة صفحات ، رأى "خليل شرف الدين "أنّ الشّيء الوحيد الذي أساء إلى أبي العلاء أديبا و شاعرا هو ما سماه ((بالتخلف التعبيري واللغوي ... وهو آفة بقدر ما هو ميزة ، فيه يغلّ الأديب والشاعر يدي أدبه ، ويثبط همة أسلوبه ويثقل جناحي خياله ، ويصبح الأدب ، خاصة الشعر ، الهبة لغوية ، وعلى الأصح أحجية مطلسمة تستدعي من القارئ – هذا إن لم ينفذ صبره – أن يفتح القواميس ليفهم المراد و يفك اللغز)) [1].

ويرى الباحث أن أبا العلاء استطاع أن يخفف منن ذلك التحذلق بأسلوبه الرمزي، وذلك الخيال والسخرية البالغة والوعاء المضحك، والحوار الشيق والوصف والتمثيل، والمعاني التأملية البعيدة، كما في رسالة الغفران))[2].

كما يشغلنا المعري بكثرة التصوير الحسي، وحب الاستشهادات المختلفة والولوع بالتحدي وإظهار البراعة وكثافة المعرفة والذكاء الحاد في ملاحظة أوضاع الحقيقة))[3].

ويذهب الباحث إلى أن أبا العلاء حين يتحرر من العقدة اللغوية في شعره ((أو قبل أن يشرب عقله الحائر ماء الشعر ورونقه.... نجده ينطلق بطبعه على سجيته، وبأسلوبه على سهولته وعفويته مع عناية ملحوظة بهندسة التعبير لجهة بلاغته كالتقديم والتأخير، والنداء.... ويلاحظ ذلك بوضوح في سقط الزند وهو من بواكير أبي العلاء الشعرية))[4].

حيث ينساب الشعر انسيابا، أو يضج ضجيجا حسب أنهما العاطفة وصخبها وهي عاطفة جياشة صادقة في الحالتين))[5].

---

[1] - خليل شرف الدين، مبصر بين عميان، ص128.

[2] - ينظر المرجع نفسه ، ص128-129.

[3] - المرجع نفسه ، ص 129.

[4] - المرجع نفسه ، ص 132.

[5] - المرجع نفسه ، ص 132

ويذهب الباحث على صدق العاطفة عند أبي العلاء بقصيدة

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح بال ولا ترنم شادي

ويرى أن هذه القصيدة ((هي قطعة فنية خالدة خلود الصدق والعفوية والتأمل الفلسفي في حقيقة الحياة، والأحياء .... قطعة ارتفعت عن مناسبتها الحزينة الخاصة إلى أن أصبحت مرثاة للإنسانية كلّها))[1].

1 ـ المرجع السابق ، ص 134.

قراءة نقدية في كتاب "رجعة أبي العلاء"

" رجعة أبي العلاء" هو عنوان كتاب كتبه العقاد، ودفعه لكتابته خبر قرأه في الصحف آنذاك على أن الحكومة السورية ستعمل تابوتا في معرة النعمان مسقط رأس حكيم المعرة، وتبني له مزارا، ليكون مقصدا للناس فخطر للعقاد فكرة الرحيل مع" رهبن المحبسين" في رحلة خيالية، ومعرفة آرائه في أحوال العصر الحاضر، فتخيل العقاد أن أصحاب الشأن انتدبوه أي انتدبوا العقاد ليذهب إليه في لحده، ويخبره الخبر، ويطلب منه أن يقوم من مرقده ليرى كيف تغيرت الدنيا، بعد مرور ألف عام على وفاته، ويستأذنه أن يكون في صحبته، ويطوف العقاد بحكيم المعرة الكرة الأرضية، وهي فكرة استوحاها العقاد من كتاب أبي العلاء" رسالة الغفران"، وهي الرسالة التي تخيل فيها أبي العلاء نفسه وقد بعث من مرقده، وزار الجنة، وطاف بأرجائها، والتقى فيها الشعراء والأدباء، وهي الرسالة نفسها التي استوحى منها "دانتي" عمله المشهور "الكوميديا الإلهية".

والكتاب كلّه قائم على مجموعة من الحوارات بين العقاد الذي يمثل مندوب الحكومة السّورية وبين المعري، ويذكر العقاد أنه لا يختلق كلام المعري، بل هو مقتطفات من أقوال وأشعار وحكم المعري المنثورة في كتبه، ويرى العقاد أن "أحوال كأحوال العصر الحاضر قد كانت مشهودة معهودة في أيام أبي العلاء، ولا شك أننا واجدون في كلامه حكما مكشوفا أو ملفوفا على جميع تلك الأحوال" [1].

ويقول العقاد:((فخطر لنا أن أبا العلاء قد دعي من حظيرة الخلود غلى شهود ذكراه وأن الأمد لا يزال فسيحا بيننا وبين ذلك اليوم المشهود، ففي ذلك الأمد متسع لرحلة علائية حول الكرة الأرضية، يرى فيها ما يعنينا أن يراه ويقول فيه ما ينبغي أن يقول، أو نقول نحن على لسانه ما يشبه مقاله في أوانه قياسا على ما صنع هو في السماء حين حدثنا في رسالة الغفران بلسان الأدباء والشعراء، وجعل لهم من كلامهم وأخبارهم دليلا له في كلامه وأخباره، فكتبنا يومئذ سلسلة هذه الفصول التي سميناها " رجعة أبي العلاء"، وعرضنا فيها حوادث الدنيا كما تتمثل له ولمن

---

[1] - عباس محمود العقاد، رجعة أبي العلاء، ص9.

ينظرون إلى أمور العصر الحاضر مثل نظرته في سائر الأمور، ونحسب أننا أتينا بصفوة الآراء التي توافقه، ونستخلص من جملة تفكيره ،ما لم يكن قد تغير نظره بعد موته، وهو مستحيل))[1] .

ويؤكد العقاد أن ردود المعري كلها من أقواله المحفوظة، فيقول العقاد في هذا الشأن ((ونحسب كذلك أننا لم ننحله رأيا ينكره لو أنه عاد إلى هذه الحياة الدنيا في زماننا هذا، لأننا شفّعنا آراءه الحاضرة بأقواله المحفوظة فيما عرض له من خطوب زمانه، فتشابهت الأقوال وتقاربت الأحكام)) [2].

ويتخيل العقاد أن أبا العلاء ينكر عليهم بناء تابوت له، وهو القائل

إن التوابيت أجداث مكررة فجنب القوم سجنا في التوابيت

فيخبرونه أنهم إنما أرادوا ذلك ليكرموا منزلته، فيجيب

لا تكرموا جسدي إذا ما حل بي ريب المنون فلا فضيلة للجسد

ويركب شيخ المعرة مع مريده بساط الريح، وتبدأ الرحلة التي أراد من خلاله العقاد أن يبيّن أراء المعري في الأمور المعاصرة.

فيختار أن يعود لوطنه المعرة أولا

بلاد بها نيطت على تمائمي وأول أرض مس جلدي ترابها

وأثناء ذلك يكثر المريد من أسئلته على الشيخ، فيقول:((أليس من عجب هذا الحب للمعرة من عاف الدنيا بأسره))[3].

---

1 _ المرجع السابق ، ص7.

2 _ المرجع نفسه ، ص 8.

3 _ المرجع نفسه ، ص 38.

فيجيب الشيخ في غير ضجر ولا تأفف .... ما أكثر عجب الناس مما لا عجب فيه! إنما يحب الوطن الصغير من يعاف الوطن الكبير))[1].

((ومن كره الدنيا كره التقلب فيها، وكره السعي وراءها في نواحيها، فإلى أي تقلب يصير غير المكان الذي لا عناء فيه يتجشمه، ولا جديد فيه يفجؤه بما يسوؤه ولا يزال قريبا من عهد صباه قبل أن يذوق مرارة العيش ويمتحن ببلواه))[2].

ومن بين البلاد التي زارها الحكيم مع مربده بلاد تحكم بالسيف، وسماها العقاد بالحكومات العسكرية، وبّينا رأي أبي العلاء فيها ببيت من شعره وهو قوله:

ومن شرّ البريّة ربّ ملك يريد رعية أن يسجدوا له

وهؤلاء الحاكمون يقولون عنهم أنهم معصومون وإنهم لا يحاسبون، وإنهم أرباب، كما تحدث مع المستشرقين، وسمع أرائهما عن المرأة ومكانتها فأقر بضرورة تعليمها وخروجها للعمل، بل وخروجها للحرب، وهو رأي قاله أفلاطون من قبل، وقد أيده المعري، ثم زار بلاد الغرب أو الجرمان وبلاد الشيوعية، وبلاد الشمال المليئة بالمخترعين، مثل النرويج والسويد، وزار بلاد الانجليز والأندلس، وإيطاليا بلاد دانتي، وبلاد العرب وما بها من شعر وأدب، ثم اتجه إلى أقصى المغرب وأقصى المشرق وأنهى المطاف بمصر ،ومن بين الأماكن التي أتعبته وطلب من تلميذه ألا يذهب إليها ثانية البلاد التي تحكم بالسيف وبلاد الشيوعية وقال التلميذ :((لعلك ذاهب بنا إلى معشر ناس كأولئك الذين كنا بينهم؟ إن كان ذاك فعد بنا إلى المعرة واختصر بنا مسافة هذه السياحة فلا طاقة لي بسخافة قوم آخرين كأولئك الذين فارقناهم في بلاد الشيوعيين ولا بسخافة قوم كأولئك الذين فارقناهم في بلاد الطغاة العسكريين)).

---

[1] ـ المرجع السابق ، ص38.

[2] ـ المرجع نفسه ، ص 39.

فلماذا ذكر المعري هذين المكانين؟ فأما بلاد الشيوعية فهو يرى أن تلك العقائد إنما هي مصالح الطبقة الحاكمة تصوغها على هواها لتخدم سلطانها والغلبة على من دونها ،وقال في بيت

إنما المذاهب أسبا ب لجلب الدنيا إلى الرؤساء

وهو يرفض فكرة أن يأتي زمان ينقطع فيه الفقر ويبطل فيه الغنى وتؤول السيادة إلى العاملين المستضعفين على سنة التساوي ،وهو يقول عن البلاد التي تحكم بالسيف أو بلاد الحكومات العسكرية كما سماها العقاد: ((قصارى ما يملك المرء في هذه الدنيا عمرا واحدا يعلم فيه كل ما قدر من العلم ويعمل فيه كل ما وسع فيه العمل ،ويختبر فيه اختباره ويستوفي فيه أحواله وأطواره ،فإذا قضاه فتلك حصته من الزمن لا حصة له بعدها ولا نصيب له من أعمار الدنيا وراءها .

قال الرسول: والشهرة يا أستاذ أليست هي عمر متجدد، وحصة مزدادة ؟ قال أبو العلاء: كلا يا بني الشهرة استطالة لعمر الشهير فيها تكرار له وليس فيها تجديد لشيء منه، قال الرسول: إذا يا مولاي أنا أعلم رأيك في الحكومات العسكرية التي تركنا بلادها أو هذه الأمم التي يجرون على وتيرة لا يشذون عنها ونظام لا يهاودون فيه فأصغى أبو العلاء طويلا ثم قال:

ومن شر البرية رب ملك يريد الرعية أن يسجدوا له

وهؤلاء الحاكمون يقولون إنهم معصومون وغنهم لا يحاسبون وإنهم أرباب يدان لهم بطاعة الساجدين الراكعين فقال الرسول: إن هؤلاء القوم لا يخضعون على كره منهم ولكنهم يخضعون لأنهم يؤمنون إيمان الحاكمين ويفكرون تفكيره قال أبو العلاء:

وما أعجبني لابن آدم شيمة على كل حال من مسود وسائد

ذلك أدهى وأمر وليتهم فكروا وخالفوا وخضعوا مرغمين فذلك أكرم لعقل الإنسان وأدنى إلى الرجاء في الخلاص، أما أن يسلب الإنسان الفكر حتى لا يفكر إلا بأمر الحاكم فذاك آلة من الآلات وحيوان من العجموات وليس بآدمي له عقل))[1].

وبعد ذلك يعقد العقاد مقال بعنوان الحكيمان يقارن فيه بين المعري وشوبنهاور ويصل في ختام هذا المقال إلى التشابه الكبير بين المعري وشوبنهاور ثم ينطلق العقاد مع المعري في تلك الرحلة الفكرية إلى أقصى المغرب ثم إلى أقصى المشرق حتى يصل إلى مصر ويقضيا فيها أياما بين ترحيب وتسليم قبل أن يختم العقاد الكتاب بقصيدة من إحدى عشرة بيتا عنون لها بنشيد الوداع.

1 _ المرجع السابق ، ص43.

المقدمة

تعد شخصية أبي العلاء المعري من أكثر الشخصيات الأدبية إثارة للجدل ،سواء بين القدماء أو عند المحدثين ،وربما يرجع السبب في ذلك إلى تميز هذه الشخصية في جانبيها الفكري والفلسفي ،وكذا في الجانب الأدبي والنقدي ،مما أكسب الكتابة حول هذه الشخصية أهمية متميزة ،لكونها تبتغي الإمساك بعالم شاعر عبقري منفرد في الاتجاه الفني ، والذي تبناه طوال مسيرته الشعرية ،فعالم المعري الأدبي له خصوصياته على المستوى الفني ،و كذا على مستوى الموقف الاجتماعي و الإنساني،ولذ احظي إنتاجه الأدبي –كما ذكر بعض من قرأت له –بأكثر من مئة وخمسون بين دراسة .بحث وإشارة ،واستغرق جهود عدد كبير من الباحثين ، وعلى رأسهم في العصر الحديث الدكتور "طه حسين" والناقد " عباس محمود العقاد" وغيرهم كثير ،ولا يمكن لأي إنتاج أدبي استقطاب ذاك الكم الكبير من الدراسات لو لم يكن من النصوص الخالدة.

ولا يمكن لأي شخصية أدبيّة أن تستقطب اهتمام كبار الدارسين أمثال " طه حسين " و"العقاد" للكتابة حولها ،لو لم تكن لها مميزاتها الخاصة ،وهذا ما دفعني لتناول هذه الشخصية الأدبية الهامة وذلك من خلال قراءت نقدية لثلاث من أهم الدراسات التي كتبت حول هذا الحكيم ،واستخلاص أهم الآراء النقديّة الحديثة التي توصّل إليها المحدثون من النقّاد .غير أن الإشكال الذي يفرض علينا أن نترك له مكانا في هذه المقدمة هو : **ما هي أهم الأدوات النقدية الحديثة التي بحث من خلالها هؤلاء النقاد عن مميزات الشخصيّة العلا ئيّة ؟ وما هي أهم النتائج التي توصلوا إليها ؟.**

وللإجابة على هذه الإشكاليّات ،حاولت وضع خطّة بحث قسمت فيها الدراسة إلى : مقدمة وفصلين وخاتمة . حيث تناولت في الفصل الأول ثلاثة مباحث ،فجعلت المبحث الأول خاص بأثر البيئة السياسية والثقافية في شخصية أبقي العلاء ، ووضعت في المبحث الثاني أهم المكونات النفسية والفكرية لشخصية أبي العلاء ، وتركت المبحث الثالث لأهم ما يميز الكتابة الأدبية عند المعري .

و أما في الفصل الثاني فوضعت ثلاث قراءات نقدية لثلاث من أهم الكتب النقدية التي تناولت بالدرس شخصية وأدب أبي العلاء ،وبدأت في المبحث الأول بكتاب "تجديد ذكرى أبي العلاء " للدكتورّ طه حسين"،إذ يعد من أوائل الكتب النقدية التي أخذت بالمنهج التاريخي في النقد بمفهومه الحديث :وخصصنا المبحث الثاني لكتاب "مبصر بين عميان"للأستاذ "خليل شرف الدين":وحصرنا البحث فيها عن أهم القضايا المتعلقة بالأدب والنقد:قبل إن نتقل في المبحث الثالث والذي هو عبارة عن قراءة ندية في كتاب" رجعة أبي العلاء "للعقاد :ثم جعلنا في آخر الدراسة خاتمة بينّا فيها أهم النتائج المتوصل إليها في هذه الدراسة

هذا وقد اعتمدنا في بحثنا هذا على المنهج الوصفي كالذي يعد الأنسب لمثل هذه الدراسات

وأما عن أهم المصادر ومراجع هذه الدراسة فهي

- تجديد ذكرى أبي العلاء لطه حسين

- مبصر بين عميان لخليل شرف الدين

- رجعة أبي العلاء للعقاد

وفي النهاية لا يسعني إلا أن أشكر أستاذي الفاضل "حجاب عبد اللطيف" الذي وجهني وأعانني على إنجاز هذا البحث المتواضع كوان أشكر عمال المكتبة المركزية وكذا صاحب مكتبة التوحيد الذين كانوا يد عون لي طوال مدة البحث بإمداد بما احتاج إليه من كتب وغيرها من المساعدات وأخير نقول :فإن أصبنا فمن الله وإن أخطأنا فمن أنفسنا ومن الشيطان.

ملخص

تناولنا في هذه الدراسة حضور شخصية أبي العلاء المعري في النقد الأدبي الحديث من خلال ثلاث كتب هم "تجديد ذكرى أبي العلاء" للدكتور طه حسين وكتاب "مبصر بين عميان " للأستاذ خليل شرف الدين، و"رجعة أبي العلاء"للعقاد .وتجد في الفصل الأول من هذه الدراسة ،أثر البيئة السياسية والثقافية في شخصية أبي العلاء، كما سلطنا الضوء على أهم مميزات الشخصية العلائية من خلال مكوناتها النفسية والفكرية ،ومن خلال تميز إنتاجه الأدبي.

قبل إن نتقل في الفصل الثاني إلى التركيز على أهم القضايا النقدية في كتاب "تجديد ذكرى أبي العلاء" والتي يمكن تلخيصها في ثلاث نقاط :

المنهج التاريخي في جانبه الإجرائي

الإتحاد الوجداني بين الناقد والأديب

الفصل بين الانهيار السياسي و الرقي الثقافي

وإما في كتاب "مبصر بين عميان" فكان البحث حول تلخيص أهم المباحث النقدية التي تخص شعر وأدب أبي العلاء وذلك من خلال

البحث عن الحداثة في شعر أبي العلاء

تميز شاعرية أبي العلاء

- الأسلوب الأدبي عند أبي العلاء

وفي المبحث الثالث من الفصل الثاني وضعنا ملخصا لكتاب "رجعة أبي العلاء " والذي هو عبارة عن رحلة خيالية وسياحة فكرية للعقاد مع أبي العلاء،على طريقة رسالة الغفران والذي حاول من خلالها الكاتب استنطاق أهم الآراء الفلسفية و الفكرية لأبي العلاء.

الخاتمة

ينطلق البحث العلمي من مجموعة من الأسئلة و الإشكالات ثم يمر في محاولة للإجابة عن تلك التساؤلات في مجموعة من المباحث إلى أن يصل إلى مجموعة من النتائج ،والتي عادة ما يضعها الباحث في نهاية الدراسة ،وأهم ما توصلنا إليه في بحثنا هذا هي مجموعة من النقاط :

- أن أبا العلاء المعري هو كغيره من الشخصيات الأدبية تأثر بالبيئة و الثقافة التي عاش فيها ، فمثل لسان حال عصره .

- أن أبا العلاء وان كان قد تأثر بالزمن الذي قضى فيه حياته كان كغيره من العباقرة الذين يشذون ويتميزون عن زمانهم بآرائهم وأساليبهم ،وفلسفتهم في الحياة نظرتهم إلى المجتمع.

- كما توصلنا أن كتاب "تجديد ذكرى أبي العلاء " يعد أول دراسة نقدية عربية ممنهجة أخذت بالمنهج التاريخي بمفهومه الحديث في دراسة شخصية أبي العلاء .

- كما عرفنا أن طه حسين قد وفق وإلى حد بعيد في تطبيق المنهج التاريخي في درسه لشخصية أبي العلاء

- وعند الأستاذ خليل شرف الدين عرفنا أنم الشاعرية الحقة ليست قوالب إيقاعية يسكب فيها الكلام ، وإنما هي قيم تعبيرية و ظلال نفسية محيطة بها أساسها تجربة شخصية ذات أبعاد إنسانية ، وأن الشعر عند أبي العلاء هو حكمة وفلسفة .

ووصل الأستاذ خليل شرف الدين إلى أن الشعر عند أبي العلاء خرج من دائرته القديمة الضيقة،دائرة القبلية و الارتزاق إلى دائرة الكون و الإنسان

- وتمثلت الحداثة عند أبي العلاء في المواقف الرافضة لكل الأعراف والعلائق البشرية مع تميز شعره بالصدق والعفوية التي هي أساس الحداثة .

- وفي الأخير نرجو أنا قد وفقنا في هذه الدراسة و قد أصبنا فيها شيء من الفوائد و لربما نكون قد عبدنا الطريق لغيرنا لتناول هذا الموضوع بالدراسة والتحليل